الفصل التاسع

أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٣٥ هـ - ٦٥٦م = ٤٠هـ - ٦٦١م

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحسن والحسين وابن عم رسول الله ﷺ، وزوج فاطمة الزهراء، وأمه فاطمة بنت أسد بن هشام بن عبد مناف، فهو من أبوين هاشميين وبذلك اجتمعت فيه خلاصة الصفات التى تميزت بها هذه الأسرة الكريمة التى اتسمت بالنبل والشجاعة والذكاء، فكان رضى الله تعالى عنه سباقا لأقاربه فى صفات كثيرة فى طفولته الأولى مما كان له أثر فى نفسه كبير، وقد توفيت أمه على الإسلام قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأكثر كتاب السير تقول أنه أول الناس إسلاما، وابن حجر فى كتاب الإصابة[1] يؤيد هذا، وإن كنت أرى أن خديجة رضى الله عنها هى أول الناس إسلاما، فهى أول من سمعت من رسول الله ﷺ قصة الوحى بعد عودته من غار حراء فصدقته وآمنت به.

ولد رضى الله تعالى عنه قبل البعثة بعشر سنين، وقيل إن أمه اختارت له اسم حيدرة[2] على اسم أبيها أسد، ثم غيره أبوه فسماه عليا، وبه عرف واشتهر، وأما اسم أبيه فهو عبد مناف، وكنيته أبو طالب، وكان على أصغر أبناء أبويه – وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، ولما أصاب القحط قريشا، أهاب رسول الله ﷺ بعميه حمزة والعباس أن يحملوا شيئا من ثقل أبى طالب فى تلك الأزمة، فجاؤه وسألوه أن يدفع إليهم بعض ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا لى عقيلا، وخذوا من شئتم، فأخذ العباس طالبا، وأخذ حمزة جعفرا، وأخذ النبى عليا، فعوضه ﷺ إثارة بالحب من إيثار أبيه، وقد عرف هذا الإيثار فى طفولته فكان لذلك أثره الكبير فى حياته، فقد عاش فى كنفه، ونعم بالقرب منه، وظفر بعطفه وحنانه وسمو أخلاقه ﷺ، فتخلق بمنهجه فى سلوكه، وترسم خطاه، وقد كان أقرب الناس إلى قلبه وأحبهم إلى نفسه، وفى ظلال خديجة بنت خويلد رضى الله عنها التى كانت من فضليات النساء فى قريش، عاش وترعرع فى هذا المنزل

(١) ج٤ ص ١٦٦.

(٢) الحيدرة هو الأسد.

وفى هذا الجو المعطر بكل الأخلاق الفاضلة، نشأ وتربى على الحق – واستقامة السلوك، مع التواضع والحب الشديد على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل، كما كان قويا فى جسده صلبا، وربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض فى غير مشقة – كما كان لا يبالى بالحر أو البرد، ولا الصيف ولا الشتاء – ويروى عنه أنه قال لما سئل فى هذا: أن رسول الله ﷺ قال اللهم أذهب عنه الحر والبرد فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ، ولا يفهم من ذلك أنه كان عديم الحس بالبرد أو الشتاء – لا – وإنما كانت لديه مناعة قوية، كما كان عالما بشريعة الإسلام فقيها فى الأحكام، متحريا الحق والعدل والصدق لا يهاب فى ذلك أحدا إلا الله تعالى، يقول كلمة الحق، ولا يخشى إلا الله تعالى، جلد الحروب، فارسا ماهرا محاربا من الطراز الأول، لم تهزم له راية – ولا يقوى على مبارزته إلا مغامر أو مقامر بنفسه، فصيحا بليغا.

كان كذلك رضى الله عنه وكان لابد وأن يكون كذلك وأكثر من ذلك، فقد تربى فى أطهر بيت وأشرفه، فى بيت ترفرف عليه العناية الإلهية، ويتضوع بأريج الدعوة الإسلامية، ويشع منه نور الهداية المحمدية، فكيف لا يكون كذلك، وقد نشأ على الفضيلة والتقى والورع – والخشية من الله تعالى، والبعد عما كان عليه أقرانه من شباب العرب، بل والرجال منهم، فقد روى عنه أنه قال: "لقد عبدت الله تعالى قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة" كما ظل يشارك الرسول ﷺ أفراحه، ويقاسى معه حلو الحياة ومرها يفرح إذا رأى الدعوة الإسلامية تسير فى طريقها مرفوعة الهامة، ويبئس إذا أصابها وأصاب الرسول ﷺ أذى من قريش أو من غيرهم.

ولما التقى الرسول ﷺ مع أهل يثرب فى بيعة العقبة وخشيت قريش نتائج هذا اللقاء، فكرت فى التخلص منه ﷺ قبل أن يستفحل أمره وهداها فكرها السقيم إلى اغتياله ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال الآية ٣٠]. وأخبر الله تعالى الرسول بمكرهم وأمره بالهجرة، فخرج ﷺ وأبو بكر مهاجرين بعد أن أمر الرسول ﷺ عليا بن أبى طالب رضى الله عنه، أن ينام فى مكانه تلك الليلة، فقبل عن طيب خاطر أن يبذل نفسه فداء للرسول ﷺ، لتضليل المحاصرين لداره، ضاربا بذلك أروع الأمثال فى التضحية والفداء، وفى سعادة غامرة كان يحس بها.

ثم هاجر بعد ذلك على كرم الله تعالى وجهه بعد أن أدى الودائع التى أمره الرسول ﷺ بردها إلى أصحابها.

ثم آخى الرسول ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار، كما هو معروف من السيرة النبوية، وقال لعلى: "أنت أخى فى الدنيا والآخرة".

وقد بلغ من حب الرسول ﷺ له أن زوجه بابنته فاطمة الزهراء رضوان الله تعالى عليها سيدة نساء أهل الجنة، بعد أن تقدم لخطبتها أبو بكر، فاعتذر له الرسول ﷺ فى رفق ورقة – وقد أشار بعض الصحابة على "على" أن يخطب فاطمة من أبيها، فخطبها ثم قال ﷺ لها: "إن عليا يذكرك، وقال له: أهلا وسهلا" وكانت هذه من علامات الرضى.

وكان صداقها سريرا ووسادة من أدم[1] حشوها ليف وإناء يشرب فيه وقربة ومنخل، ومنشطة وقدح، وأهدت بعض النسوة إليها بردين، وقد تزوج بها فى شهر رجب بعد مقدم النبى ﷺ إلى المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر الكبرى وكانت رضى الله عنها فى الثامنة عشرة من عمرها، وقد ظلت حياتهما خالية من كل شكاية لم يألفها الزوجان، فكانت رضى الله عنها على أحسن ما توصف به الحياة الزوجية، وماتت ولم تبلغ الثلاثين من عمرها.

وكان على كرم الله تعالى وجهه الساعد الأيمن للرسول ﷺ فى المدينة المنورة، كما كان الولد البار فى مكة – ولما التقى المشركون بالمسلمين فى معركة بدر الكبرى اشترك على فى القتال وقد جاوز العشرين من عمره فى ريعان الفتوة، وعنفوان القوة، وقد أبلى بلاء حسنا فى المعركة وصرع الأبطال من المشركين، وموقفه من الوليد بن عتبة لما بارزه معروف.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ سوى غزوة تبوك، فقد خلفه ﷺ فى المدينة وقال المنافقون: إنما خلفه استثقالا له وزهادة فيه فذهب إلى رسول الله ﷺ باكيا، فطيب خاطره، ورده، وقال: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى" فرضى بذلك، وقد كان فى كل غزواته ومشاهده مظفرا منصورا، ذا بلاء وغناء له الأثر المحمود، والمقام الذى لا يجهله أحد، مقداما لا يبالى بمصارعة الموت – أبلى البلاء الحسن فى أحد والخندق – وهذا موقفه فى الخندق كمثل من الأمثلة الكثيرة فى الشجاعة عند اللقاء، لا يهاب قرنا بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت.

(١) الأدم بفتحتين جمع أديم، والأدمة باطن الجلد مما يلى اللحم، وربما سمى وجه الأرض أديما والأدمة للسمرة، والأدم من الناس الأسمر. أ هـ. مختار الصحاح ص ١٠.

فهذا موقفه من عمرو بن ود، وهو فتى ذو شجاعة وعمرو بن ود فارس الجزيرة العربية، الذى كان يقوم بألف من الفرسان.

خرج عمرو، وعبر الخندق، وهو يتيه فى كبريائه ويتبختر فى سلاح الطاغوت متحديا المسلمين يهز سيفه بيده، ومقنع بالدروع والحديد وهو ينادى بأعلى صوته: من يبارز؟ فصاح على بن أبى طالب أنا له يا نبى الله، فقال النبى ﷺ: إنه عمرو بن ود!! اجلس، ثم نادى عمرو بن ود: ألا رجل يبارز؟ فقام على وقال: أنا له يا رسول الله فقال النبى ﷺ له اجلس إنه عمرو بن ود، فأخذ: عمرو يؤنب المسلمين قائلا: أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها، أفلا تخرجون إلىَّ رجلا منكم؟ فقام على، فقال أنا يا رسول الله، فقال الرسول ﷺ اجلس إنه عمرو، وهو يجيبه، وإن كان عمرا وقد تمادى عمرو فى غيه وزهوه حتى أذن له النبى ﷺ فمشى إليه وهو فرح بهذا الإذن حتى أتاه.

فقال عمرو بن ود، من أنت؟ فقال ولم يزد أنا على، قال: ابن عبد مناف قال: ابن أبى طالب، فأقبل عليه عمرو يقول: يا ابن أخى من أعمامك من هو أسن منك، وإنى أكره أن أريق دمك فقال له على ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك، فغضب، وأهو إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار فاستقبلها على بدرقته فقدها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه على حبل عاتقه فسقط ونهض وسقط ونهض وثار الغبار، فما انجلى إلا على عمرو صريعا، وعلى يجأر بالتكبير، وسمع الرسول ﷺ التكبير، فعرف أن عليا قتل عمرو بن ود، ثم أقبل على على رسول الله ﷺ، ووجهه يتهلل، فقال عمر بن الخطاب: هلا استلبت درعه؟ فإنه ليس للعرب درع خيرا منها، فقال على إنى استحييت أن أسلبه درعه وسوأتيه مكشوفة.

وكذلك فى خيبر، بعد أن اشتد حصار حصونها، وطال أياما ولياليا بسبب مناعتها واستمر الحصار حتى جاء اليوم السادس، قال رسول الله ﷺ "لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله"[1] وأخذ كل صحابى يتمنى أن تكون الراية من نصيبه، وقال عمر بن الخطاب: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ وفى الغد بعث ﷺ إلى على – يا لها من امتياز من رسول الله ﷺ، تلك التى تمناها كل صحابى حتى عمر بن الخطاب أزهد الناس فى الدنيا ويقول: ما تمنيت شيئا فى حياتى من أن أكون هذا الرجل – وجاء على كرم الله وجهه بأمر النبى ﷺ، فتقدم واتجه نحو حصن الناعم، فلما قرب

(١) صحيح مسلم ج ١٥ ص ٧٦.

منه خرج إليه أهل الحصن ودارت معركة شديدة قتل فيها قائد الحصن "الحارث بن أبى زينب" فتولى القيادة بعده أخوه "مرحب" وهو من أبطال اليهود لقى عليا.

وقد تقدم نحو على كرم الله وجهه، يريد مبارزته إلا أن مرحبا كاد أن يقتل عليا فى أول جولة، ولكن عليا فى النهاية سدد إليه ضربة فلقت هامته، فوقع قتيلا، وانتصر المسلمون، وفتحت خيبر فكان يقال عنه رضى الله عنه: إنه ما صارع أحدا إلا وصرعه .. وهكذا مما يروى عن شجاعته.

ولا أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ كان يختاره لصعاب الأمور التى تتطلب الشجاعة أو الحكمة العالية، فقد عهد إليه ﷺ أن يقضى بين أهل اليمن فقال: إنى لا أدرى ما القضاء؟ فضرب الرسول ﷺ بيده صدره وقال (اللهم اهد قلبه، وسدد لسانه).

وسئلت عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها: لأى الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ، قالت فاطمة، فقيل من الرجال، قالت: زوجها على، إنه كان ما علمت صواما قواما[1] أخرجه الترمذى.

وقد كان فى كل غزواته مظفرا منصورا، ذا بلاء وغناء، له الأثر المحمود، والمقام الأسمى الذى لا يجهله أحد ولا يبالى بمصارعة الموت.

على القاضى رضى الله عنه: له ميادين أخرى تكاد الروايات التاريخية تجمع عليها مثل: القضاء فلم تكن هناك قضية يستعصى الإفتاء فيها – إلا ولها على رضى الله عنه لفقهه، وعمق فهمه لأحكام الشريعة الإسلامية، والقدرة والموهبة على استخلاص الأحكام من القرآن الكريم والسنة النبوية والمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه مما جعل عمر بن الخطاب يقول: كلما استشكلت قضية من القضايا على أحد (قضية ولا أبا حسن لها) لأنه كان رضى الله عنه يتجاوز التفسير إلى التشريع كلما لزم ووجب الاجتهاد بالرأى الصائب أو القياس السليم ولعلمه بأدوات الفقه وبنصوصه وأحكامه، مثل علمه بالحساب الذى كان يستعين به على معرفة المواريث وغير ذلك.

كما كان يمتاز بخصائص قل أن تكون لرجل، وذلك مثل:

فصاحته رضى الله عنه: كان فصيحا بليغا، وكثير من المشتغلين بعلوم اللغة العربية يتخذون أقواله نبراسا لهم يستشهدون بها عند الاقتضاء.

وإن فى خطبه، وكتاباته التى جمعت فى كتاب تحت عنوان (نهج البلاغة) الذى

(١) عن الذهبى ج٣.

اختاره أبو الحسن محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه وشرحه الإمام الشيخ محمد عبده، لدليل وأى دليل على بلاغته وفصاحته.

ففى هذا الكتاب فيض من آيات الحكم والعقائد، فى عبارات بالغة منتهى القوة الكلامية، مما جعل الإمام الشيخ محمد عبده يقول فى وصفه: (كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد، فتارة أجدنى فى عالم يغمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزكية، وتدنوا من القلوب الصافية، توخى إليها رشادها وتقوم منها مرادها... وطورا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة، وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور.

وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا وأنات كأنى كنت اسمع خطيب الحكمة ينادى يا علياء[1] الكلمة، وأولياء أمر الأمة يعرفهم موقع الصواب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة.

هذه العبارات البالغة من السمو مبلغا يعلو على كثير من الأفهام وهذا الوصف لرسائل على بن أبى طالب مع ما كان له من شرف القرابة للرسول ﷺ إلى آخر ما قاله الإمام فى حديث[2] طويل يمكن الرجوع إليه لمن شاء الإفادة والاستفادة.

وربما تشكك بعض الباحثين فى نسبة بعض ما جاء فى هذا الكتاب إلى الإمام لاشتمالها على آراء ومصطلحات غريبة عن العصر الذى قيلت فيه، وميلها إلى الفلسفة التى لم تكن محبوبة عند كثير من المسلمين فى العصر الإسلامى الأول، ومع ذلك فلا يمكننا أن ننكر كل ما جاء فيه، وإنما فيه قدر كبير للإمام على كرم الله وجهه، كما فيه تعريف للمؤمن بخالقه، إذ يقول الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا، كل عزيز غيره ذليل وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم ... لم يحل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن.. إلخ ما هو كثير جدا، ومن العلوم التى سبق فيها عصره:

علم النحو: فقد ضرب فيه بسهم وافر، وقد قال علماء اللغة إن أبا الأسود[3] الدؤلى شكا

(١) هكذا فى الأصل.

(٢) نهج البلاغة ص ٢١١ ، ٢١٢ط دار الشعب.

(٣) عبقرية على – العقاد ص ١٣٧ ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له اكتب ما أملى عليك، ثم أملاه أصولا، منها "إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عما ليس باسم ولا فعل وأن الأشياء ثلاثة ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر" وهكذا كان ابتكاره لقواعد النحو.

وأما كتب الإمام ورسائله وعظاته، وخطبه فقد كانت قدوة للأديب، وكان ديوانه الذى سمى بنهج البلاغة أحق بهذه التسمية من أى كتاب عربى آخر.

ويقول الإمام محمد عبده أيضا: لا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه من هذا الاسم، وليس فى وسعى أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دل عليه اسمه ولا أن آت بشيء فى بيان مزينه ما أتى به صاحب الاختيار[1]، ألا تكفى شهادة الإمام محمد عبده هذه ؟

وإن من الأمثلة الدالة على جوامع كلم الإمام على فى أسلوبه المبدع فى التعبير فى قوله "نفس المرء وخطاه إلى أجله" وقوله: "المرء مخبوء تحت لسانه".

ومما انفرد به الإمام على رضى الله عنه، وأمن المشاركة فيه كلامه فى الزهد والمواعظ، فمما ينسب إليه "الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق" وقوله: "قيمة كل امرئ ما يحسنه"[2] وقال لرجل أفرط فى الثناء عليه وكان له متهما "أنا دون ما تقول، وفوق ما فى نفسك" ومما قال: "هلك فى رجلان: محب غال، ومبغض غال"، ومن قول "يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور[3] على المظلوم"، وقال: "لا تقل ما لا تعلم، ولا تقل كل ما تعلم"، وقوله: "كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه" يقصد بذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو واشتد، فزع المسلمون إلى رسول الله ﷺ فينزل الله عليهم النصر به، ويأمنون ما كانوا يخافونه".

البيعة لعلى:

قتل الثوار الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ، وأصبحت المدينة فى قبضتهم، وكانت الفرقة المصرية فى المدينة أقوى الفرق، وتولى زعيمها الغافقى الإمامة فى الصلاة بالمسجد النبوى.

(١) نهج البلاغة – مقدمة الإمام محمد عبده ص ١٢.
(٢) نهج البلاغة ص ٤٣١.
(٣) نهج البلاغة ص ٤٠٩.

وفى اليوم الخامس لمقتل عثمان، أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد، لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام، ولابد أن يبايع هذا الإمام فى أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما فى أيديهم ويرسل أقواهم (معاوية) جندا إلى المدينة ليخضعها لسلطانه، ويعاقب الثوار على ما كان منهم.

وكان الثوار مع اتفاقهم على اختيار خليفة كانت أهواؤهم مختلفة فهوى أهل مصر مع على، وهوى أهل الكوفة مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، فذهبت كل جماعة إلى من يرغبون حكمه، وعرضوا عليه الخلافة فرفضها الثلاثة، وكان كل واحد منهم يتبرأ من الثوار فلما لم يجد الثوار ممالئا ولا مجيبا، قالوا: لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة، فبعثوا إلى سعد بن أبى وقاص وقالوا له: إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فأقدم نبايعك، فبعث إليهم: إنى خرجت منها فلا حاجة لى بها على أى حال، ثم أتوا عبد الله بن عمر فقالوا له: أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر، فقال: إن لهذا الأمر يوم الخميس حيث وافق على قبول الخلافة وتواعدوا يوم الجمعة حيث تمت البيعة لعلى.

ومع ذلك فقد تمت البيعة له باتفاق أهل المدينة التام، ولا نرى الأخذ بما يرويه الطبرى عن الزهرى من أن نفرا من أعلام الصحابة قد تخلفوا عن البيعة له كرم الله وجهه وهؤلاء الصحابة كما عينهم الطبرى هم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة ابن عبيد وكعب بن عجرة وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وأسامة ابن زيد، إن النفس لا تطمئن إلى التعويل على رواية الطبرى هذه لما رواه الطبرى نفسه من أن الثوار قد جاءوا برجال كانوا قد تخلفوا فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله فى القريب والبعيد، والعزيز والذليل، ثم قام العامة فبايعوا.

ويؤيد ما ذهبنا إليه ما رواه بن سعد من أن كافة أهل المدينة قد بايعوا ومن يتأمل الروايات التى تحدثت عن عبد الله بن سلام وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وغيرهم، وعن علاقاتهم بعلى يتضح له أنهم جميعا قد شهدوا له بالعلم والفضل والتقوى والورع، وأنهم دخلوا فيما دخل فيه غيرهم من الإقرار بخلافته والطاعة له.

منهجه فى الحكم:

سار على فى الحكم كما كان يسير عمر بن الخطاب من الضرب بحزم على ذوى الأهواء، وإقامة العدل، وعاش عيشة كانت إلى الشظف.

الجو الذى تمت فيه البيعة لعلى:

الروايات التاريخية تختلف أشد الاختلاف فى زمان البيعة لعلى ومكانها، وفى الأشخاص الذين رفضوا أن يبايعوه وفيمن اعتزله من المهاجرين والأنصار، ونحن نلقى الضوء لنسبتين منه الجو الذى تمت فيه البيعة له كرم الله وجهه.

إن ابن عباس وابن الحنفية والشعبى يقولون: إن البيعة تمت له بعد استشهاد عثمان ولكنهم لا يعينون اليوم الذى تمت فيه.

وبعضهم يقول: إنها تمت فى يوم السبت الثامن عشر من ذى الحجة، وهو اليوم الذى قتل فيه عثمان.

ويروى البعض الآخر أن المدينة مكثت أياما خمسة تحت إمارة الغافقى، ويروى سيف ابن عمر أن الثوار قد أعطوا يومين مهلة لأهل المدينة وأنذروهم بأنهم إذا لم ينتهوا فيها من اختيار الخليفة فسيقتلون عليا والزبير وغيرهما من كبار الصحابة.

ويروى أن البيعة كانت فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى الحجة، ويروى أيضا أن الثوار جمعوا أهل المدينة فى يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى الحجة وقالوا لهم: أنتم الذين تنعقد بكم الإمامة، فانظروا من تولوا ونحن لكم تبع فرأى الجمهور مبايعة على فبويع.

وهذه الروايات – على تعارضها – يمكن التوفيق بأن جمهور أهل المدينة قد جاءوا عليا يعرضون عليه الخلافة فى يوم مقتل عثمان، وأن الحوار قد طال بينهما حتى نفد صبر الثوار فأنذروا أهل المدينة وأمهلوهم يومى الثلاثاء والأربعاء الرابع والخامس من إمرة الغافقى، وأن أهل المدينة قد اجتمعوا بعد ذلك.

وقد كان أمير المؤمنين إلى الخشونة أقرب وكان يحمل عماله على البساطة فى العيش، وعلى الرفق بالرعية، لقد كان كرم الله وجهه شديد الحرص على الأموال العامة، وكان يحاسب عماله على التفتيل والنقير والقطمير مما كان سببا فى أن يكرهه ذوو الأطماع الشخصية.

وكان كرم الله وجهه يسير فى الأسواق واعظا ومؤدبا، ويؤثر عنه من العبارات ما يدل على منهجه فى الحكم الذى هو شديد القرب من منهج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومن تلك العبارات قوله: "من أبدى صفحته للحق هلك، وليس لأحد عند الإمام هوادة".

ونلاحظ أن عليا كرم الله وجهه لم ينجح فى منهجه للحكم كما نجح عمر – رضى الله عنه – والسبب أن الناس فى عهده غير الناس فى عهد عمر فقد حدث تطور كبير فى الأفكار والعقيدة ونظام المعيشة ولاسيما فى عهد أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه –، ولا أجد تعبيرا يفسر هذه الظاهرة التاريخية أوضح من قول على نفسه حين سأله سائل: لم شغب الناس عليك، ولم يشغبوا على أبى بكر وعمر، فأجابه كرم الله وجهه قائلا: "لأنهما كانا واليين على مثلى وأنا الآن والى على مثلك" هذا ولله فى خلقه شئون.

خطبة على بعد أن بويع:

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤديكم إلى الجنة إن الله حرم حرما غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباده فى عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض".

ولا شك فى أن الموقف يومئذ كان يحتاج إلى مثل تلك الخطبة، التى بدأت بالتذكير بكتاب الله الذى أنزله لهداية الناس، والدعوة إلى عمل الخير، واجتناب الشر، والتزام الفرائض، والتنبيه إلى حرمات الله، وأهمها حرمة المسلم ولعله بذلك يحدد موقفه من انتهاك حرمة المسلم.

ويبين رأيه فى العدوان عليه سواء كان الخليفة أم غيره – وبيان مكمن القوة فى المسلمين، والحض على العمل الصالح – لنيل ثواب الله، والالتزام بتقوى الله وطاعته.. الخ.

موقفه بعد المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان:

ثم بدأ على إلى مباشرة تبعاته والاضطلاع بمهام منصبه وكان عليه فى هذا الصدد

أن يعالج مسألتين ملحتين عويصتين، فأما الأولى فهى القصاص من قتلة سلفه عثمان، وهؤلاء القتلة ما يزالون بالمدينة غادين رائحين لا يتصورون – وهم ما برحوا العصبة القوية المتحكمة – أن ينال الخليفة منهم الآن شيئا ولكن جميع من لم يشترك فى الثورة على عثمان قد غضبوا لمقتله ويريدون أن يتخذ الخليفة على موقفا حازما وسريعا من هؤلاء الثائرين.

فكيف واجه على هذا الموقف الدقيق؟!

قالوا فى الجواب عن هذا التساؤل:

اجتمع إلى «على» بعدما دخل طلحة والزبير فى عدة من الصحابة فقالوا: يا على، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم: يا إخوتاه، إنى لست أجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! ها هم أولاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون؟ قالوا لا، فقال: فلا والله لا أرى لا رأيا ترونه إن شاء الله.... حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا، أى إن رأيه كان يقضى بالانتظار حتى تستقر الأمور وتهدأ النفوس ويملك الخليفة زمام الأمور فى يده، وتتم سيطرته على الأوضاع، وتكون سلطة الخلافة فوق قوة هؤلاء الثائرين وحينئذ فإن القصاص نافذ فيمن شارك فى قتل عثمان وهو رأى وافقه عليه كما نرى زعماء الناس على مضض لأنه لا حيلة لهم ولا للخليفة يومئذ إلا فى الانتظار.

عزل ولاة عثمان:

وأما المسألة الثانية فهى: عزل ولاة الأمصار الذين كان أغلبهم سبب شكوى الناس وتذمرهم فى عهد عثمان، أو إبقائهم لبعض الوقت ريثما يحكم الخليفة قبضة يده على أزمة الأمور، وتعود البلاد إلى حالتها الطبيعية.

وفى هذا الصدد لعلنا نتذكر ما قلنا فى الصفحات السابقة من أن عليا كان يرى – كغيره من الناس – أن ولاة عثمان وتصرفاتهم هى التى أدت إلى كثير مما حدث، وأنه تقدم إلى عثمان بنصحه بأن يكون حازما معهم حتى تهدأ الأمور ويعود الناس إلى أمصارهم قبل أن

يتفاقم الخطر وتزداد الأمور تعقيدا ولذلك فإنه ما كادت البيعة تتم لعلى حتى بادر إلى تعيين ولاة جدد للأقاليم المختلفة، وعزل ولاة عثمان جميعا، فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف، وإلى الكوفة عمارة بن شهاب، وجعل على اليمن عبيد الله بن العباس، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وعلى الشام سهل بن حنيف.

ويكاد يتفق المؤرخون وسائر الكتاب على أن هذه الخطوة من على لم تكن فى موضعها الصحيح، ويذكرون أن فريقا من الصحابة – بينهم عبد الله بن عباس، والمغيرة بن شعبة – قد نصحوه بألا يعجل بهذا الأمر حتى تهدأ أحوال الدولة وتتم له السيطرة على مقاليد الأمور فيها بعد أن تأتيه بيعة الأمصار، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لوالى الشام معاوية ابن أبى سفيان الذى كان يومئذ قوة هائلة يحسب حسابها قبل التعرض له بالعزل من جهة، ومن جهة أخرى، فإذا علمنا أن معاوية – ومن خلفه أهل الشام جميعا – قد رفض القبول بما جرى لعثمان، وكل ما ترتب عليه فإن الأمر كان يحتاج إلى لون آخر من المعالجة تعتمد على السياسة والمرونة بخلاف ذلك الذى صنعه على كرم الله وجهه.

ولاسيما وقد ذكره ابن عباس بقول النبى – ﷺ – "الحرب خدعة" كى يتريث فى عزل معاوية ريثما تستقر الأمور، ولكن صلابته فى الحق وصلابته فيه أقوى من سياسته، ومن مبادئه ألا يسكت ساعة عمن يكون غير راض عنهم ويرى مصانعتهم، وملاينتهم خروجا على مقتضى الصدق والإخلاص.

ولهذا فقد بادر بعزلهم جميعا لأنه لم يكن راضيا عنهم ولا مطمئنا إليهم وقد تمكن الولاة الجدد من الوصول إلى أمصارهم ومباشرة عملهم إلا سهل بن حنيف، فقد منعه جند معاوية من دخول الشام، يقول الطبرى: فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقينه خيل، فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أى شىء؟ قال على الشام، قالوا إذا كان عثمان بعثك فأهلا بك، وإن بعثك غيره فارجع، قال: أو ما سمعتم بالذى كان؟ قالوا بلى فرجع إلى على، وما عدا عمارة بن شهاب الذى لم يتمكن من دخول الكوفة حين لقيه فى الطريق إليها: طليحة بن خويلد الأسدى – وكان من المطالبين بدم عثمان – فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم: (أبى موسى) بدلا وإن أبيت ضربت عنقك، فرجع عمارة إلى على وأخبره بما لقيه.

غير أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى الخليفة بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين له –

أهواءهم فمنهم الكاره بالذى كان، ومنهم الراضى بالذى قد كان، وفريق ثالث بين هؤلاء وأولئك، فأصبح على وهو على بينة من أهل الكوفة.

بين على ومعاوية رضى الله عنهما:

ولقد كتب على إلى معاوية يطلب منه البيعة له، فرد عليه رسوله دون جواب، حتى إذا كان شهر صفر – بعد أكثر من شهرين من مقتل عثمان – بعث معاوية إلى الخليفة برسالة جاء فيها "من معاوية إلى على" وهى عبارة تعنى أن معاوية لا يعترف بخلافة على ولا يقر له بالطاعة، فسأل على رسول معاوية عن حقيقة الأمر، فقال الرسول: إنى تركت ورائى قوما لا يرضون إلا بالقود قال: ممن؟ قال الرسول من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق: فقال على: منى يطلبون دم عثمان، ألست موتورا لقتل عثمان؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان!

وكتب معاوية إلى على متهما إياه بالمشاركة فى التحريض على عثمان حتى قال، "لو بايعك القوم الذين بايعوك، وأنت برئ من دم عثمان كنت كأبى بكر، وعمر وعثمان رحمة الله عليهم فلأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين".

ويقول ابن حزم – فى كتابه الملل والنحل – : على أن معاوية لم يكن بالذى ينكر فضل على واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان، والكلام فى (النيابة) عن ولد عثمان دون الحكم بن العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك، ولما كان قرابته من عثمان، فهو المطالب ضمنا بالأخذ بثأره.

وهكذا تبنى معاوية نداء القصاص من قتلة عثمان وجعله شرطا لازما يسبق تقديم البيعة لعلى، وقد أصر على هذا الشرط، ولقد بعث معاوية بكتاب مع أبى مسلم الخولانى – وكان من كبار التابعين الشاميين – إلى على بن أبى طالب جاء فيه "وأخرى أنت بها ظنين، إيواؤك قتلة عثمان، فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك، فطلب إليه على أن يلقاه فى المسجد غدا، فدخل عليه أبو مسلم، فإذا بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح، وهم ينادون كلنا قتلة عثمان، فقال أبو مسلم لعلى: إنى لإى قوما مالك معهم أمر.

وواضح بعد ذلك كله أن تمسك معاوية بشرطه هذا لا يعنى إلا الإصرار على رفض البيعة التى قدمها المسلمون لعلى عدا معاوية وأهل الشام، وهذا يعنى بالضرورة أن يعمل الخليفة على إدخال أهل الشام فيما دخل فيه المسلمون من البيعة حتى وإن أدى الأمر إلى القتال، وكان هذا هو ما استقر عليه رأى على ووافقه عليه معظم رجاله، فأخذ يعد عدته ويتجهز للزحف نحو الشام لقتال هؤلاء الخارجين عليه وعلى إجماع أهل العقد والحل فى بلاد الإسلام يومئذ ما عدا أهل الشام.

وفيما هو كذلك إذا أنباء جديدة تصله من مكة تغير خططه، وتؤجل زحفه إلى الشام.

* * *

الفتنة الكبرى

يذكر الدكتور إبراهيم شعوط فى كتابه أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ أنه إذا ما حاولنا نحن تتبع الأحداث فى كتب التاريخ بعد مقتل عثمان نجد أن روايات التاريخ تضطرب فى هذه الفترة اضطرابا يتلاشى معه وجه الحق، ولا يتضح فيه سبيل يوصل الباحثين إلى معرفة الحقيقة بصورة قطعية.

أول التخطيط:

لقد انقسم المسلمون بعد بيعة على رضى الله عنه، إلا ثلاث فرق: فرقة تطالب الخليفة بالتعجيل فى إقامة القصاص على قتلة عثمان.

وفرقة ترى رأى على فى مطاولة الثوار ريثما تهدأ الأمور، ويستقر الوضع الجديد بمبايعة جميع الأمصار، حتى لا يجد قتلة عثمان أنصارا يدافعون عنهم، أو يتخذونهم ذريعة للشغب على الخليفة الجديد.

وفرقة ثالثة لزمت الحياد فى هذه الفتنة، ولم تستطع أن تتبين وجه الحق حتى تنحاز إلى جانبه.

وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة تموج بهذه الفرق، وتضطرب فى أمواج الخلاف على تلك الأمور – خرج جماعة من كبار الصحابة، منهم طلحة والزبير – بعد أن استأذنا الخليفة – فى الذهاب إلى البصرة والكوفة اللتين احتشد فيهما كثير من الثوار ليستنفروا الناس، لطرد أولئك الثوار، ومبايعة على.

صاحبة الجمل:

يروى ابن الأثير: فى هذه القصة كلاما يحير العقول، لأنه يصف السيدة عائشة أم المؤمنين بما يبعد بها جدا، عن التأثر بالصحبة الطاهرة لرسول الله ﷺ، فيقول: – بعد أن ذكر السيدة عائشة – كانت قد خرجت من مكة تريد المدينة، فلما كانت بسرف – مكان قريب من مكة – لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث، يقال له "عبيد بن أبى سلمة" فقالت له: مهيم؟ – يعنى ما وراءك؟ قال اجتمعوا على بيعة علي، فقالت ليت هذه – وتريد السماء – انطبقت على هذه – وتريد الأرض – إن تم الأمر لصاحبك.. ردونى.. ردونى.

فانصرفت إلى مكة وهى تقول: "قتل مظلوما، والله لأطلبن بدمه". فقال لها: ولم؟

والله، إن أول من أمال حرفه لأنت[1] ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا[2] فقد كفر. قالت إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت، وقالوا... وقولى الأخير، خير من قولى الأول، فقال لها عبيد بن أبى سلمة:

فمنـك البـداء ومنـك الغير ... ومنك الرياح ومنـك المطـر
وأنـت أمـرت بقتـل الإمام ... وقلـت لنـا إنـه قـد كفـر
هبينـا أطعنـاك فـى قتلـه ... وقاتلـه عندنـا مـن أمـر
ولـم يسقط السقف من فوقنا ... ولـم تنكسف شمسنا والقمر
وقـد بايـع الناس ذا تدرئ ... يزيل الشبـا ويقيم الصعـر[1]
ويلبـس للحـرب أثوابهـا ... وما من وفى مثل من قد غدر

ويرى ابن قتيبة: أن عائشة خرجت باكية تقول: قتل عثمان رحمه الله، فقال لها عمار:

بالأمس تحرضين عليه، واليوم تبكينه؟[3] فانصرفت إلى مكة، فقصدت الحجر فتسترت به، فاجتمع الناس حولها، فقالت أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار، وعبيد أهل المدينة، اجتمعوا على هذا الرجل ظلما، ونقموا منه استعماله من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا سفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام[4].

فاجتمع الناس، ثم ذهبوا إلى البصرة، ليحرضوا أهلها ضد على بن أبى طالب، وقالوا: إن عائشة كانت تحمل فى نفسها كراهية لعلى بن أبى طالب، من يوم أن قال لرسول الله فى حادث الإفك "النساء كثيرات"[5].

رأينا فى هذا التصوير:

إن الذين صوروا أم المؤمنين عائشة بهذه الصورة، لم يعرفوها أبدا .. وإنما صوروا امرأة من نساء عصرهم: تدفعها العاطفة، ويقودها التهور، وتستجيب لهواها وأحقادها.

(١) يريد أنها أول من أظهر العيب على عثمان.
(٢) نعثل بفتح النون وفتح الثاء رجل يهودى كان الثوار يشبهون عثمان به.
(٣) الإمامة والسياسة ص ٤١.
(٤) راجع كتاب الكامل ج٣ ص ١٠٥، والإمامة والسياسة ص ٥٢.
(٥) عصر الخلفاء الراشدين للمرحوم محمود فياض ص ٣١٢ ومحمد رسول الله للدكتور محمد رضا ص ٢٢٤.

لقد نسوا أنها هى أم المؤمنين، وحبيبة رسول الله، وموضعها فى قلبه معروف، وأنها كانت أوثق الناس صلة بسيد الخلق، وأرجح أمهات المؤمنين عقلا، وأوعاهن لتوجيهات رسول الله، ولذلك قال فيها: "خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء"[1] وهى التى يروى هشام عن أبيه فى أمرها، قال: ما رأيت أحدا من الناس أعلم بالقرآن، ولا بفريضة، ولا بحلال وحرام، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا النسب، من عائشة[2].

كما يقول عروة فى فضلها: "لو لم يكن لعائشة من الفضائل، إلا قصة الإفك، لكفاها ذلك فضلا وعلوا ومجدا، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة"[3]!

فهل ينبغى لمثلها أن تقع فيما يأتى من هذه الأخطاء؟

أولا: تتناقض مع نفسها فى الحكم على عثمان، فتأمر أولا بقتله، ثم إذا قتل تكون فى طليعة من يطالب بدمه؟

هل هذه أخلاق أمهات المؤمنين؟ حتى إذا لاحظ عليها الناس هذا الاضطراب، وقعت فى عذر أقبح من الذنب .. تقول: لقد قلت وقالوا، وقولى الأخير خير من قولى الأول؟!

ونحن نقول: سبحانك ربنا، هذا بهتان عظيم، على أم المؤمنين.

ثانيا: لقد شاع فى كتب التاريخ وذاع، أن الذى دفع أم المؤمنين عائشة إلى وقوفها فى صف خصوم على بن أبى طالب، هو حقدها عليه من يوم أن وقف يهون أمر حادث الإفك على رسول الله، ويقول له: النساء غيرها كثيرات...

فمن يومها، وهى لا تذكر عليا باسمه، من شدة الحقد عليه، فإذا أرادت أن تخبر عن خروج على مع رسول الله قالت: خرج رسول الله ومعه رجل آخر.

وهذا كله، يبدو فيه تجاهل مقام السيدة عائشة وتربيتها المحمدية، وخروجها عن تصرفات المطهرة قلوبهم من الحقد، إلى عامة الناس، فى العصور البعيدة عن عصر النبوة ! !

ولقد وجدنا صفة أم المؤمنين واضحة جدا فى معاملتها لحسان بن ثابت، الذى خاض فى تلك الفتنة وتحمل وزرها، حتى أقام الرسول عليه حد القذف.

فيروى الشيخ أبو الأعلى المودودى، فى تفسير سورة النور فيقول: "وكانت عائشة رضى الله عنها، دوما تبدى عطفها على حسان بن ثابت، ولا تقابله إلا بالإحسان والتواضع،

(١) الحميراء المرأة التى فى لونها حمرة.

(٢) طبقات الحفاظ للذهبى ج١ ص ٢٧.

(٣) محمد رسول الله للأستاذ محمد رضا ص ٢٢٤.

وتلقى له الوسادة عندما يدخل عليها، مع أن حسان كان من الذين أذاعوا حديث الإفك.

ولما أن ذكرها بعض الناس مرة بما فعل حسان، قالت: إنه كان يدافع عن رسول الله، وقالت مرة أخرى: ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة[1].

فإذا كان هذا موقفها من حسان، الذى خاض مع الخائضين، وقالت فى شأنه أنه كان يدافع عن رسول الله "أفلا يكون تقديرها أكبر لعلى بن أبى طالب، الذى كان يريد تفريج كربة رسول الله، وإخراجه من الهم الذى شغله بقوله: "النساء غيرها كثيرات" ولم يرد طعنا فى عائشة، بمقدار ما كان يريد إبعاد الحزن عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولاشك أن عائشة كانت تحب من يحب رسول الله، وتضعه مكان التقدير والإعزاز.

فأى فرية متهافتة مثل هذه الفرية، بعدما عرفنا صفحها عن حسان بن ثابت وبعد ما عرفنا صفح أبيها عن "مسطح" أحد أقاربه الذى كان ينفق عليه من ماله وكان من الخائضين فى حديث الإفك، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه من ماله بعد ذلك؟ ولكن لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة النور: الآية ٢٢] وسمعها أبو بكر رضى الله عنه، فقال: "إنى لأحب أن يغفر الله لى" وأعطى مسطحا أكثر مما كان يعطيه أولا...

فهل السيدة عائشة – على فرض أن ما صنعه على رضى الله عنه، أساءها – هل لم تسمع الآية التى أثرت فى أبيها وهى قوله الله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾؟ [سورة النور: الآية ٢٢]

ولاشك – والولد سر أبيه – أنها سمعتها، وآثرت أن يغفر الله لها بعفوها عن المسيئين بدليل عفوها عن حسان بن ثابت.

فكيف تبقى فى نفسها – بعد ذلك – حقدا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب – على ما بين الموضوعين من تفاوت بعيد!!

لم يبق بعد ذلك، إلا أن نؤمن دائما، بأن عائشة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين، أبعد ما تكون عما نسب إليها فى هذه الدعوى بالنسبة لعلى رضى الله عنهما.

---

(١) تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى ص ١٤٧.

لماذا خرجت السيدة عائشة إلى البصرة

بعد الذى ذكرناه مما يعرف لأم المؤمنين من السداد فى الرأى، والحكمة فى التصرف – بعد هذا – يخطر فى بال المتتبع للحوادث هذا السؤال؟

فلماذا إذن، خرجت أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير إلى البصرة، إذا لم يكن هدفهم المطالبة بدم عثمان، بدافع البغض لأمير المؤمنين على بن أبى طالب؟

والجواب عن هذا السؤال، لا نعتمد فيه على العاطفة والاستنتاج، ولا نستغل حبنا لأم المؤمنين رضى الله عنها، ولا نستعمل تقديرنا للصحابيين الجليلين: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، اللذين بشرهما رسول الله بالجنة .. – لا نعتمد على شىء من ذلك... وإنما نضع بين عينى القارئ نصوصا وأخبارا، رواها المؤرخون فى غمار هذه الفتنة، ولكنها تضاءلت وغطاها ركام الأغراض الخبيثة، وما غمر كتب التاريخ من شائعات، كانت مرتعا خصبا لخيال القصاص والشعراء، ومن ينتحلون لأنفسهم خفة الظل فى مجال التظرف والمنادمة.

اقرءوا معى – إن شئتم – هذه الروايات:

١ – يروى القاضى ابن العربى فى كتابه (العواصم من القواصم ص ١٥١ أنه يحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان.

٢ – ويروى هذا المرجع، أنه يمكن أن يكونوا قد خرجوا فى جمع طوائف المسلمين وضم نثرهم وردهم إلى قانون واحد، حتى لا يضطربوا فيقتتلوا.

وهذا هو الصحيح، لا شىء سواه .. وبذلك وردت صحاح الأخبار[1].

٣ – يروى ابن حجر فى (فتح البارى) ج١٣ ص٤١ فيقول: "إن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها، نازعوا عليا فى الخلافة، ولا دعوا لأحد منهم، ليولوا الخلافة".

٤ – ويروى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابه "مختصر سيرة الرسول" ص ١٤١ فيقول: وبلغ الخبر عائشة – وهى حاجة – ومعها طلحة والزبير، فخرجوا إلى البصرة يريدون الإصلاح بين الناس واجتماع الكلمة.

٥ – وروى ابن الأثير فى كتاب "الكامل" جـ٣ ص ١٠٧ أن عثمان بن الحنيف، أمير البصرة، أرسل إلى أم المؤمنين، رجلين يسألانها عن سبب مسيرها؟ فقالت: والله، ما مثلى يعطى لبنيه الخبر.. وإن الغوغاء ونزاع القبائل، غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه،

(١) العواصم من القواصم ص ١٥١.

وآووا المحدثين، فاستوجبوا لعنة رسول الله ﷺ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوا، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام .. فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء، وما الناس فيه وراءنا، وما ينبغى لهم من إصلاح هذه القضية .. وقرأت: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾. [سورة النساء: الآية ١١٤]

٦ – ومن أوضح الأدلة على أن أم المؤمنين، لم تكن تقصد – بخروجها – تفريق الجماعة ولا شفاء حقد بينها وبين على: أن الذين طلبوا منها الخروج – وهم طلحة والزبير ومن معها – كانوا يعلقون آمالا على خروجها، فى حسم النزاع، وجمع الشمل.

وفى ذلك يقول ابن العربى ص ١٥٢: "فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، رضى الله عنهم، رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم، فيراعوا حرمة نبيهم، واحتجوا عليها عندما حاولت الامتناع – بقول الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٤] ثم قالوا لها: إن النبى قد خرج فى الصلح وأرسل فيه.

قال ابن العربى: "فرجت المثوبة، واغتنمت الفرصة، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها".

٧ – ويقول القاضى ابن العربى، فى معرض الرد على من قال: إن أهل البصرة لما عرفوا بمجىء عائشة وطلحة والزبير، خرجوا ليقاتلوهم وعلى رأسهم "حكيم بن جبلة" قال ابن العربى – فى شأن حكيم بن جبلة – "عن أى شىء كان يدافع؟ وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة.. وإنما جاءوا ساعين فى الصلح، راغبين فى تأليف الكلمة؟ فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم، دافعوا عن مقاصدهم كما يفعل فى سائر الأسفار والمقاصد"[1].

٨ – يروى الطبرى[2] أن عليا، عندما وصل إلى البصرة، أرسل القعقاع بن عمرو، ليقوم بالوساطة بينه وبين أصحاب الجمل، فلما رجع القعقاع، أخبر أنه قد استجاب له أصحاب الجمل، وبعث إلى طلحة والزبير يقول: "إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع ابن عمرو،

(١) العواصم من القواصم ص ١٥٤.

(٢) الأمم والملوك جـ٥ ص ١٦٩ والكامل جـ٣ ص ١١٩ – ١٢٠.

فكفوا، حتى ننزل فننظر فى الأمر ..” فأرسلا إليه: ”إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو، من الصلح بين الناس“.

قال الحافظ ابن كثير[1]: ”واطمأنت النفوس وسكنت، فرجع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسكوا، بعث على ”عبد الله بن عباس، إليهم وبعثوا ”محمد بن على السجاد“ إلى على، وعولوا – جميعا – على الصلح... وباتوا بخير ليلة، ولم يبيتوا بمثلها للعافية، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، حتى اجتمعوا – فى السر – على إنشاب الحرب.

ويقول ابن الأثير[2] إن الأشتر النخعى[3] قال: ”قد عرفنا رأى طلحة والزبير فينا، وأما على، فلم نعرف رأيه اليوم، ورأى الناس فينا واحد، فإن يصطلحوا مع على، فعلى دمائنا، فهلموا بنا، نثب على على وطلحة فنلحقهما بعثمان، فتعود فتنة يرضى فيها منا بالسكون، يعنى أنهم يفلتون بها من الحد فى دم عثمان رضى الله عنه.

هكذا كانت فكرة الصلح، هى المسيطرة على عقول القوم من الطرفين، كما كانت هدفهم الذى يهدفون إليه، حتى فى وقت استعدادهم للقتال.

وفى أثناء تنظيم الجيوش، قال ابن الأثير[4]:

ولما خرج طلحة، نزلت مضر جميعا وهم لا يشكون فى الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون فى الصلح، ونزلت اليمن أسفل منهم وهم لا يشكون فى الصلح، ثم يقول: فكان بعضهم يخرج إلى بعض، لا يذكرون إلا الصلح.

وكان أصحاب على عشرين ألفا، وخرج على وطلحة والزبير، فتوافقوا، فلم يروا أمرا أمثل من الصلح، ووضع الحرب، فافترقوا على ذلك .. الخ.

واقرءوا أيضا، رد السيدة عائشة على السيدة أم سلمة، حيث قالت: ”ما أقبلنى لوعظك وأعلمنى بنصيحتك، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه إلى فئتين متناحرتين“[5].

٩ – لقد أدرك المفسدون، أن الصلح سيسلم رقابهم لسيف أمير المؤمنين.

وانتهزها – كذلك – دعاة السوء من منافقى اليهود، الذين ما تزال صدورهم تغلى حقدا

(١) الأمم والملوك ج٥ ص ١٦٩ والكامل ج٣ ص ١١٩ – ١٢٠.

(٢) الكامل جـ٣ ص ١٢٠.

(٣) وهو من قتلة عثمان الذين لا يريدون الصلح.

(٤) الكامل جـ٥ ص ١٢٢.

(٥) الإمامة والسياسية ص ٥٧.

على الإسلام والمسلمين – انتهزوها فرصة العمر – فوقف عبد الله بن سبأ، المعروف "بابن السوداء" يقول: "يا قوم، إن عزكم فى خلطة الناس، فصانعوهم، فإذا التقى الناس غدا، فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فمن أنتم معه، لا يجد بدا من أن يمتنع – أى عن الصلح – ويشغل الله عليا، وطلحة، والزبير، ومن رأى رأيهم.. عما تكرهون.. فأبصروا الرأى، وتفرقوا عليه، والناس لا يشعرون !!

الحلقة المفقودة

هى التى يمكننا أن نقرأها، من بين السطور المضطربة فى هذه الحقبة المظلمة فى كتب التاريخ، إذا انتزعنا أنفسنا من عصرنا هذا، وعشنا مع هؤلاء القوم فى حقبتهم وبيئتهم، التى لا يزال يتلألأ فى جوانبها نور النبوة وضياء الإيمان.

كان المحور الذى يدور حوله الخلاف بين على رضى الله عنه، وكل المخالفين عليه، هو أمر قتلة عثمان.

فكل المسلمين – فى هذه اللحظة – مجمعون على وجوب إقامة الحد وتنفيذ القصاص فى قتلة عثمان.

وأن الذى تولى الحديث عن المقتول، هو معاوية بن أبى سفيان.

ولما طلب إليه أن يبايع عليا، لم يمانع فى البيعة، ولكنه اشترط أولا، تسليم قتلة عثمان أو إقامة الحد عليهم.

ويؤيدنا فى ذلك ما رواه إمام الحرمين فى كتابه: (لمع الأدلة) حيث يقول: ومعاوية – وإن قاتل عليا – فإنه لا ينكر إمامته، ولا يدعيها لنفسه.. وإنما كان يطلب قتلة عثمان رضى الله عنه، ظانا أنه مصيب، وكان مخطئا[1].

ولم يسبق إلى ذهن أحد من المسلمين فى المدينة، أن هذا الطلب اتخذ ستارا للوصول بمعاوية إلى الخلافة، ولم تكن فكرة "قميص عثمان" قد اتخذت مثلا لمن يريد أمرا ثم يتعلل بغيره للوصول إليه، وإنما كان مفهوم هذا الطلب صريحا: أنه إقامة حد من حدود الله، لا ينبغى التفريط فيه.. لا من الرعية ولا من الراعى.

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، يرى هذا الرأى ولا ينكره، وإنما شرح أسباب تأجيل النظر فيه حتى يتم له الأمر، وتبايعه الأمصار الإسلامية كلها، وحينئذ، يستطيع

(١) راجع كتاب لمع الأدلة لإمام الحرمين عبد الملك الجوينى ص ١١٥.

أن ينفذ حكم الله فى المجرمين، فقال فى أول يوم من بيعته، عندما سأله طلحة والزبير – ومعهما جمع من الصحابة – فى أمر قتلة عثمان: "يا إخوتاه، لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هألاء قد صارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم. وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تجدون؟ قالوا: لا، قال: فوالله، لا أرى إلا رأيا ترونه – إن شاء الله – إن هذا الأمر أمر جاهلية – يعنى الثأر – وإن لهؤلاء مادة فاهدأوا عنى حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق[1].

كان هذا رأى على بن أبى طالب، بسبب الظروف التى أحاطت بأهل المدينة وقتئذ، وبسبب تمكن الثوار من الدفاع عن أنفسهم.

بينما كانت وجهة نظر معاوية والمطالبين بدم عثمان: أنه لابد من القصاص أولا، ثم البيعة بعد ذلك .. فأصبح الرأيان لا يلتقيان أبدا ..

وفى الأمة حرص شديد على الوحدة وجمع الصفوف.

فماذا يكون الحل إذن، وكلا الطرفين مصر على رأيه لا يتزحزح عنه قيد أنمله؟

ومع هذا التعقيد والإصرار، يبدو للناس الوجهان .. فالذين يقتنعون بعلى يقتنعون بسلامة رأيه، والذى يلتقون بمعاوية، يعتقدون أن الحق معه.

فما هو المخرج من هذه القضية التى سلم الناس بسلامة طرفيها؟

إذن، لابد من التماس الحل الذى يمكن أن يلتقى الطرفان فى دائرته.

ولقد بحث هذا الأمر قطبان من أقطاب الإسلام، بشرهما رسول الله بالجنة وهما: طلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العوام، فوجدا الحل عند أم المؤمنين، حبيبة رسول الله وأقرب نسائه إلى قلبه، والمصدر الصادق الذى يثق المسلمون به عن رسول الله ﷺ.

وأصبح الأمر – فى نظر طلحة والزبير – وقد ذللت كل العقبات فى طريقهم إذا تولته أم المؤمنين بنفسها.

فمتى علم المسلمون أن أمهم يهمها وحدة المسلمين، ويغضبها تفرقهم، وأن الوحدة لا يمكن أن تتم إلا إذا تم القبض على المجرمين الذين قتلوا عثمان – سواء كانوا فى البصرة أو فى الكوفة، أو فى مصر – وأن أم المؤمنين إذا نادت بهذا فستجد من المسلمين جوابا واحدا، هو القبض على كل المتهمين بقتل عثمان – عند ذلك تكون المشكلة قد انحلت

(١) الحقبة المثالية فى الإسلام، للدكتور إبراهيم شعوط والدكتور محمود زيادة ص ٣٨١ جـ١ ط الدار القومية.

من أساسها، وتكون قد أعفت عليا من حرب داخلية، كان يخشاها، فيعود المسلمون فى سيرهم الطبيعى، الذى كانوا يسيرونه فى عهد عمر وعهد عثمان.

الله يشهد أن هذا الهدف – أو قريبا منه – هو الذى ينبغى أن تشد إليه أم المؤمنين رحالها إلى البصرة من مكة، كانت تعتقد أنها تقوم بواجبها كاملا، فى القضاء على خلاف عجز المسلمون عن التغلب عليه، كما كان طلحة والزبير كذلك، يعتقدان أنهما تقربا إلى الله بإقناع أم المؤمنين ليجتمع الشمل تحت رايتها، ويستجيب المسلمون لها، تقديسا لحرمة رسول الله فى شخص أكرم أم المؤمنين.

ويؤيدنا فى هذا الاتجاه، ما رواه ابن الأثير، من أن القعقاع بن عمرو، بعثه على رضى الله عنه إلى البصرة، فوجد هناك أم المؤمنين، فسألها وقال: أى أمة، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ فقالت: أى بنى، الإصلاح بين الناس، قال: فابعثى إلى طلحة والزبير، حتى تسمعى كلامى وكلامهما، فبعثت إليهما، فجاءا فقال لهما إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها، فقالت: الإصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: بل متابعان. قال: فأخبرانى ما وجه هذا الصلاح؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ولئن أنكرناه لا نصلح، قالا قتلة عثمان، فإن هذا – إن ترك – كان تركا للقرآن.. الخ[1].

كيف فسد الصلح

لما نجحت سفارة القعقاع بن عمرو، واقتنع الطرفان بوجوب الصلح، استبشر المسلمون ببوادر الاتفاق، وآمن طلحة والزبير والسيدة عائشة، بأن الله قدر الخير فى تصرفهم، وأدرك الخليفة على بن أبى طالب: أن الله قد نجى المسلمين من شرور مستطيرة – بات المسلمون ليلة لم يبيتوا مثلها[2] لما أمسوا به من نجاح الصلح، وتطهير نفوسهم من الشياطين.

ولكن المتهمين بقتل عثمان والاشتراك فى الفتنة، قد أصابهم الغم، وأدركهم الحزن من اتفاق الكلمة، وجمع الشمل، وأيقنوا أن الصلح سيكشف أمرهم، وسيسلم رؤوسهم إلى سيف الحق وقصاص الخليفة[3]، فباتوا يدبرون أمرهم بليل شديد الظلمة، حالك السواد، فلم يجدوا سبيلا لنجاتهم إلا بأن يعملوا على إفساد الصلح، ويفرقوا صفوف المسلمين، ويعملوا

(١) الكامل جـ٣ ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير – الكامل جـ٣ ص ١٣٣.

(٣) نفس المرجع ص ١٢٠.

عملا يبلبل الأفكار، ويسئ الظن فى كلا الفريقين بصاحبه.

ويقول ابن الأثير جـ٣ ص ١٢٣ – ١٦٤:

"وبات الذين أثاروا أمر عثمان فى شر ليلة – وقد أشرفوا على هلكة، وباتوا يتشاورن ليلتهم، فاجتمعوا على الحرب فى السر فغدوا مع الغلس، وما يشعر بهم أحد – فخرجوا متسللين وعليهم ظلمة، يقصد مضرهم إلى مضرهم، وربيعتهم إلى ربيعتهم، ويمنهم إلى يمنهم، فوضعوا السلاح بغتة فيهم... فثار أهل البصرة، وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين أتوهم... وبلغ طلحة والزبير ما وقع من الاعتداء على أهل البصرة، فقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا... فقال طلحة والزبير: "قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء، وأنه لن يطاوعنا".

وفى هذا الوقت – حسب تخطيط المفسدين – ذهبت فرقة أخرى تحت جنح الظلام، ففاجأت معسكر على بالكوفة، فلما بلغ عليا رضى الله عنه هذا الخبر قال: ما هذا؟ قال له أصحابه من أهل الكوفة: ما شعرنا إلا وقوم من أهل البصرة قد بيتونا، فقال على رضى الله عنه، نفس العبارة التى قالها طلحة والزبير: "لقد علمت أن طلحة والزبير، غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وأنهما لم يطاوعانا".

وخفيت حقيقة المؤامرة على كلا الطرفين، وظن كل منهما الشر بصاحبه دون علم ولا تثبت.

هذا هو السير الطبيعى للأحداث.

ولكن الدكتور طه حسين يخالف فى تصديق هذه الراوية، ويدعى أنها تخالف طبيعة الأشياء، ولا يسيغها إلا أصحاب السذاجة[1].

حيرة العقلاء وآراؤهم

من العبارات التى نقلت عنهم، ندرك سلامة فطرتهم، وقوة عقيدتهم، وحرصهم على التماس الخير، وبعدهم عن الشر.

والصحابة رضى الله عنهم، حينما عميت عليهم وجوه الحق واشتبهت أمام أعينهم الطرق، وقفوا حيارى، يقول كل واحد منهم: يا رب عرفنى طريق الحق حتى أسلكه، واكشف لى عن طريق الباطل حتى أتجنبه.

(١) يراجع كتاب على وبنوه للدكتور طه ص ٤٣ ط دار المعارف.

رأى الزبير فى هذه الفتنة:

قال يوما لمولاه: إنها الفتنة التى كنا نتحدث عنها، فقال مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال الزبير: ويلك.. إننا نبصر ولا نبصر.. ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمى فيه، غير هذا الأمر.. فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر؟[1].

رأى طلحة فى هذه الفتنة:

قال علقمة بن وقاص الليثى: لما خرج طلحة والزبير وعائشة، رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها – وهو ضارب بلحيته على صدره فقلت: يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على صدرك، إن كرهت شيئا فاجلس، قال: فقال لى: يا علقمة، بينما نحن يد واحدة على من سوانا، إذا صرنا جبلين من حديد، يطلب بعضنا الآخر وإنه كان منى فى عثمان ليس إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه[2].

رأى أبى موسى الأشعرى:

قال أبو موسى: لما جاءه من يطلب منه الانضمام إلى على بن أبى طالب، قال: هذه فتنة صمام، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعى، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وأروا المظلوم والمضطهد، حتى يلتئم هذه الأمر وتنجلى الفتنة[3].

والمقصود بالروايات التى أوردناها هنا، أن نبين إلى أى حد كانت الأمور مشتبهة على صحابة رسول الله؟ وكل فريق منهم كان يعمل باجتهاده.

فالذين استقام فى أذهانهم: أن الطرفين متساويان، لا يرجح أحدهما الآخر – آثروا أن يقفوا على الحياد، مثل أبى موسى الأشعرى.

والذين بدا لهم الحق فى جانب على، وقفوا معه لله إحقاقا للحق، وإيمانا بأنهم مسئولون أمام الله إن تخلفوا عن نصرة على.. مثل: ابن عباس، وعمار بن ياسر.

والذين اعتقدوا أن الحق فى جانب المطالبين بدم عثمان وإقامة الحد قبلا – حاربوا ضد على بن أبى طالب بإيمان وصدق، لا بدافع المنافع الذاتية والضغائن الشخصية.

(١) كتاب الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ١١٣.

(٢) كتاب الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ١١٣.

(٣) المرجع السابق ص ١١٦.

شهادة على بن أبى طالب للفريقين

وهذه رواية تبين لنا رأى على بن أبى طالب، فى حقيقة القتال فى هذه الفتنة، ومصير القتلى فى تلك المعركة،مما يدل على صدق إيمان المقاتلين واعتقادهم جميعا، أنهم يجاهدون فى سبيل الله.

قال ابن الأثير، فى معرض الحديث عن وصول على بن أبى طالب إلى البصرة، ما يأتى:

قام على، فخطب الناس فقام إليه الأعور بن بنان المنقرى، فسأله عن إقدامهم على أهل البصرة؟ فقال له على: الإصلاح، وإطفاء الثائرة، لعل الله يجمع الشمل فى هذه الأمة بنا، ويضع حربهم .. قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: فهل لهم من هذا مثل الذى عليهم؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلامة الدلانى فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم؟ إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ قال: نعم. قال: أترى لك حجة بتأخير ذلك؟ قال: نعم، إن الشىء إذا كان لا يدرك، فإن الحكم فيه أحوطه. وأعمه نفعا – قال: فما حالنا وحالهم، إذ ابتلينا غدا؟ قال: إنى لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله، إلا أدخله الله الجنة[1].

أعمال على تؤيد كلامه

تحدثنا كتب التاريخ – مجمعة هذه المرة – أنه لما انتهت معركة الجمل، أتى على إلى أم المؤمنين عائشة، فقال: كيف أنت يا أمه؟ قالت: بخير. قال: يغفر الله لك، قالت: ولك[2].

كما تحدثنا كتب التاريخ أيضا، أن أم المؤمنين، قالت للناس بعد موقعة الجمل "إنه والله، ما كان بينى وبين على فى القديم، إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها – أقارب زوجها – وأنه على معتبتى – لمن الأخيار، فقال على: صدقت وبرت، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة"[3].

وأيضا روت المصادر التاريخية: أنه لما حانت ساعة رحيل أم المؤمنين من البصرة، ودعها سيدنا على نفسه، وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة، وسير معها أولاده مسيرة يوم كامل[4].

---

(١) راجع كتاب الكامل ج٧ ص.

(٢) الكامل جـ٣ ص ١٣٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٥.

(٤) راجع كتاب الحقبة المثالية للدكتور إبراهيم شعوط ومحمود زيادة ص ٢٠٥.

كذلك نجد أن عليا رضى الله عنه، اشتد به الحزن على جميع القتلى، وكان يظهر توجعه وفجيعته على القتلى، ويترحم عليهم، وكان يقول: "إن من قاتل فقتل وهو لا يريد بقتاله إلا الحق، ولا يبتغى إلا رضى الله – فهو شهيد".

ولما جيء إليه بسيف الزبير، دعا على من قتله، وذكر مواقف الزبير فى يوم أحد: تأبينا له، وإظهارا لمكانته وفضله.

ويقول ابن الأثير: إنه مر على طلحة بن عبيد الله وهو صريع – فقال: لهفى عليك يا أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله، لقد كنت أكره أن أرى قريشا صرعى، أنت والله كما قال الشاعر:

فتـى كان يدنيـه الغنى من صديقه إذا ما هـو استغنى ويبعده الفقر[1]

ولقد تصرف على رضى الله عنه، فى غنائم موقعة الجمل، تصرفا يدل على أن هذه لم تكن حربا بين مسلمين وغير مسلمين، وإنما هى حرب بين فريقين من المسلمين، يرى كل منهما أن الحق فى جانبه، فجمع كل مخلفات المعركة، وبعث إلى مسجد البصرة – قال: "من عرف شيئا له فليأخذه، إلا سلاحا كان فى الخزائن عليه سمة السلطان"[2].

وكذلك صلى على جميع القتلى من الفريقين، وجمع كثيرا منهم فى قبر كبير، مما يدل على إيمانه بأنهم – جميعا – كانوا يقاتلون تعبدا، لا عنادا ولا شهوة، ولا شفاء لخصومة قديمة، أو حقد دفين... كما يريد خصوم الإسلام أن يصوروهم جميعا.

ماذا نستطيع أن نفهمه من كل ما مضى؟

نفهم أن أم المؤمنين، خرجت للصلح، بعد أن شرح لها طلحة والزبير، ضرورة معالجة الموقف، وأنه لا علاج له إلا بوجودها فى الصورة: تأمر بالقبض على قتلة عثمان، ليصفوا الأمر لعلى بن أبى طالب، ولتحقق رغبة معاوية بن أبى سفيان .. فتجمع – بهذا الأمر – بين الطرفين المتنازعين.

كان هذا هو الهدف .. ولكن المجرمين الذين تلوثت أيديهم بدم عثمان، خافوا على أنفسهم، واتفقوا على مؤامرة فى الظلام، هى السطو على المعسكرين – فى وقت واحد – بعدما أعلن المعسكران قبولهم للصلح، واستراحت قلوبهم إليه.. فباغتوا المعسكرين –

(١) الكامل جـ٣ ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق.

فى شراسة – بليل، فاختلط الحابل بالنابل، واشتبهت الأمور، حتى ظن كل من الفريقين بصاحبه شرا، وخرج الأمر من يد الحكمة، وبذلك فشل الصلح.

وفوجئت أم المؤمنين بمجىء "كعب بن مسور" وهو يقول لها: أدركى.. فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله أن يصلح بك الأمر، فركب وألبسوا هودجها الأدراع[1] "ولكن هيهات أن يوجد العقل فى الثورات وأن تتبين الرؤية فى شدة الظلام".

كيف صارت أم المؤمنين طرفا فى القتال؟

إن التى استنجد بها الناس لتفض النزاع، وتقضى على أسباب الفرقة، وجدت نفسها – فجأة – طرفا فى القتال، وانتشر فى الجموع: أن أم المؤمنين، وقفت تقاتل عليا وحزبه.

ومن الغريب أن الذين التفوا حولها، هم الذين خرجت للقبض عليهم، وتنفيذ القصاص فيهم .. فقد استطاعوا – بخداعهم – أن يجعلوا من أنفسهم المدافعين عن أم المؤمنين أمام السواد من الناس.

وهكذا صورت المعركة .. صورها تتابع الحوادث وغموض الموقف، واستغلال قتلة عثمان وجود أم المؤمنين فى المعركة.

ولذلك استشعرت أم المؤمنين: أن اسمها استغل فى إشغال النار، وتأجيج الخصومة، فقالت هذه العبارة "والله، لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة"[2]!!

وهذا تصوير لحقيقة موقف السيدة أم المؤمنين عائشة، من خلاصة روايات المؤرخين، ومن مقامها ومركزها، بصفتها أم المؤمنين جميعا، ومعها نخبة من خلاصة أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، الذين بشرهم بالجنة، ومات وهو راض عنهم.

فعسانا نكون قد وضعنا الأمور فى نصابها، وأعطينا الحقيقة التاريخية حظها من العناية، وحقها من التقدير والتقرير.

يجب أن نعرف أن الخلافات بين على ومعاوية، لم تكن لها حساسيتها التى تعرف الآن وأنها أخذت حساسيتها المذهبية فيما بعد، بعد أن طال العهد بين وقوعها وبين تدوينها... وبعد أن أضيف لها وأخذ منها.. وبعد أن استغلت لغايات لم تكن موجودة عند وقوعها.

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص ١٢٤.

(٢) الكامل جـ ٣ ص ١٣٠.

استغلت للتخلص من دولة لتقوم مقامها دولة أخرى، واستغلت لإرضاء شهوات حكام كان يسرهم أن يسمعوا ألوانا من الحديث عن طائفة من الناس، يريدون أن يحملوهم تبعة خروج الأمر من يد على إلى يد معاوية، إلى غير ذلك من الأسباب.

فكان لزاما على أصحاب المصالح فى إشباع رغبات الحكام، أو تدعيم مبادئ حزب معين، أن يكتبوا خطابات على لسان من يريدون، للطعن على من يريدون.

موقعة صفين ومهزلة التحكيم

بعد الحرب الطاحنة فى موقعة الجمل، كان فى مخطط على، أن يمضى ليرغم الخارجين عليه على الدخول فى طاعته، كما كان فى مخطط معاوية ألا يبايع حتى يقام الحد، ويؤخذ القصاص من قتلة عثمان .. نفس المشكلة من أولها – بل إنها تفاقمت بعد الدماء التى أريقت يوم الجمل، والتقى على رضى الله عنه بمعاوية وجنده عند مدينة "صفين" التى تبعد مائة ميل عن مدينة الرقة، وتقع بينها وبين حلب، وكان ذلك بعض الفرض من الجيشين، فلما دخل المحرم، توادع الفريقان على وقف القتال، احتراما للشهر الحرام، وطمعا فى الوصول إلى صلح يقى المسلمين حر القتال وإراقة الدماء.

وفشلت كل مساعى الصلح، وانقضى شهر المحرم، ودخل شهر صفر – والفريقان على تعبئة – فبدأ القتال واشتعلت نار الحرب أياما ثمانية، وكان أقساها وأعنفها ليلة التاسع من صفر عام ٣٧هـ حيث سميت هذه الليلة "ليلة الهرير" تشبيها لها بليلة القادسية.. فيها ظهرت تباشير النصر لجيش على رضى الله عنه، فلما رأى معاوية أن كفة أهل العراق قد رجحت استشار عمرو بن العاص، فأشار عليه برفع المصاحف على أطراف الرماح فنادى منادى معاوية: هذا كتاب الله بيننا وبينكم .. من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟".

وهنا تبدو لأصحاب الخيال فسحة فى خيالهم، فيتخذون من موضوع طلب تحكيم كتاب الله – بين المتنازعين – قصة تمثيلية هازلة، ينفر منها العقل، ويمجها الذوق، وتأباها طبيعة القوم الذين نسبت إليهم.

مهزلة التحكيم:

لما كثر القتل وزاد عدد الضحايا من المسلمين، وشعر أهل الشام بالضعف رفعوا المصاحف وطلبوا التحكيم.

وهذا عمل مشروع ومقبول: أن يحتكم المتنازعون إلى كتاب الله، نزولا على الأمر الإلهى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [سورة النساء: آية ٥٩].

لكن دس فى التاريخ، دخل هنا فى تصوير موقف الحكمين.

من هما الحكمان؟

١- عمرو بن العاص.. أى رجل كان هو بين الرجال؟

يروى الدكتور ألفرد ج. بتلر فى كتاب فتح العرب لمصر" أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى فى عمرو رأيا حسنا، وقد قال يوما: "إنه من خير المسلمين وأكثرهم ثقة، كما قال فيه أيضا: إنه من صالحى قريش، وكان رسول الله يحبه، لحسن رأيه وشجاعته[١].

وفى معرض شجاعة عمرو بن العاص، يذكر "بتلر" أن أحلى ما جاء فى وصفه، ما قاله دفاعا عن نفسه، عندما سمع بعض الناس يلوم معاوية على تقديمه إياه، قال: "إننى من تمثل يوم صفين بقول من قال:

إذا زاغت الأبصار حولى رأيتنى وطرفى ثبيت لم يكل ولم يغض
وأغمضت عينى منذ خابوا ولم يكن عن الموت يوم الروع ما كان من غمضى

وقد علمت أننى الكرار فى الحرب، وأننى الصبور على غير الدهر: لا أنام عن طلب.. الخ[٢].

كما يروى عن ابن حجر، أن أحد أصحاب عمرو قال فيه: "ما رأيت رجلا يعرف كلام الله ولا رجلا أكرم ولا أشبه سرا بعلانية منه".

وقد ورد فى صفحة ١٧٩ من كتاب "فتح العرب لمصر" حديث رواه الترمذى عن عقبة ابن عامر أن رسول الله ﷺ، قال: "أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص"[٣].

وإليك صورة عمرو بن العاص وجيشه فى مصر.. إلى جانب الصورة الفاضلة التى كانت له عند رسول الله فى حياته، لم ينقص منها شيء بعد مماته.

---

(١) راجع فتح العرب لمصر – بتلر ص ١٧٩.

(٢) راجع كتاب التاج ص ٣٤٢ جـ ١٠.

(٣) راجع فتح العرب لمصر نقلا عن هشام الكلبى ص ١٨٠ هامش (١).

يرويها رسل المقوقس الذين بعثهم إلى عمرو بن العاص، ليفاوضوه فيما ينبغى أن يتبع معه.

قالت الرسل – وفيهم أسقف حصن بابليون – قالوا للمقوقس:

"رأينا قوما: الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة: ليس لأحدهم – فى الدنيا – رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف أحد: يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون فى صلاتهم[1].

–روى الدارقطنى، أن عمرو بن العاص قال: "والله، لئن كان أبو بكر وعمر، تركا هذا المال وهو يحل لهما منه شيء، لقد غبنا ونقص رأيهما، وأيم الله، ما كانا مغبونين ولا ناقصى الرأى .. ولئن كانا امرأين يحرم عليهما هذا الذى أصبناه بعدهما.. لقد هلكنا، وأيم الله ما جاء الوهم إلا من قبلنا[2].

وهذا عمرو الذى حين ولاه رسول الله ﷺ قيادة غزوة ذات السلاسل، وأمده فيها بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة – استدعاه رسول الله ﷺ وقال له: "يا عمرو، إنى أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة" فقال عمرو: "ما أسلمت رغبة فى المال، ولكن رغبة فى الإسلام"[3].

ولما وجه أبو بكر الجيوش إلى فتح الشام، كان عمرو بن العاص على صدقات قضاعة، فلما أراد أبو بكر أن يسيره إلى الشام، كتب إليه يقول: إن كنت قد رددتك عن العمل الذى ولاكه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماه لك أخرى، فقد أحببت – أبا عبد الله – أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك، فرد عليه عمرو بن العاص بقوله: "إنى سهم من سهام الإسلام، وأنت – عبدالله – الرامى بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها، فارم بى فيها"[4].

هذه مأثورات تصف عمرو بن العاص على حقيقته: فى تقواه وشجاعته، وفى ورعه وأمانته.

---

(١) فتح العرب لمصر لبتلر ص ٢٢٤.

(٢) العواصم من القواصم ص ١٨٠.

(٣) الإصابة جـ٣ والاستيعاب جـ٢ ص ٥١٠.

(٤) الطبرى جـ٣ ص ٣٨٩ والبداية والنهاية جـ٧ ص ٢.

ومثل هذا الرجل لا ينبغى أن يقال فى شأنه أنه خان، أو غدر، أو تلصص ومكر.

٢ – أبو موسى الأشعرى: له عقل راجح، وثقافة واسعة، وعلم كامل بالفقه، وبعد النظر.

وقد برهنت الأحداث على تمكنه من هذه الصفة.

وقد أرسله النبى ﷺ، إلى اليمن مع معاذ بن جبل، وظل واليا لأبى بكر، بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ثم قدم وشهد فتوح الشام.

وكان رضى الله عنه، من أحسن الناس صوتا بالقرآن، حتى إن النبى ﷺ، قال عنه: "لقد أوتى أبو موسى مزمارا من مزامير آل داود".

وكان عمر رضى الله عنه، إذا رآه قال له: "ذكرنا ربنا يا أبا موسى.. وفى رواية "شوقنا إلى ربنا" فيقرأ عنده... وأثنى عليه بالفهم".

ومن أجل هذا، اختصه بكتاب القضاء، الذى يبين فيه عمر قواعد القضاء وآدابه، التى لا تزال إلى الآن، موضع اعتزاز المسلمين بقضاء الإسلام، وتفوقه على أنظمة القضاء فى العالم؟

كان أبو موسى واليا على الكوفة من قبل الخليفة عثمان رضى الله عنه، فلما قتل عثمان، ذهب دعاة على رضى الله عنه، يحرضون أهل الكوفة على لبس السلاح والاستعداد للحرب، فكان أبو موسى يشفق على دماء المسلمين أن تسفك بتحريض الغلاة المتسرعين.

فأخذ يذكر المسلمين بقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى الفتنة: "القاعد فيها خير من القائم ..إلخ" فلما لم يسمع الناس منه، اعتزلهم واختار الإقامة فى قرية يقال لها "عرض" بعيدا عن الفتر وسفك الدماء فلما شبع الناس من سفك الدماء، واقتنعوا بأن أبا موسى كان ناصحا للمسلمين، بعيد النظر فى تقديره للأمور – طلبوا من على أن يكون أبو موسى، هو ممثل العراق فى أمر التحكيم[1].

سئل على كرم الله وجهه، عن موضع أبى موسى فى العلم فقال "صبغ فى العلم صبغا"[2].

هذان هما الرجلان اللذان اختارهما المسلمون، ليفصلا فى خلاف أودى بأرواح الآلاف.

كان ينوب عن معاوية وأهل الشام، عمرو بن العاص، وينوب عن على وأهل العراق، أبو موسى الأشعرى.

---

(١) اقرأوا إن شئتم كتاب العواصم من القواصم ص ١٧٤ وهامش ص٣ للأستاذ محب الدين الخطيب.

(٢) الإصابة جـ٢ ص ٣٥٩، وابن سعد جـ ٦ ص ١٦.

وقد قيل فى الرجلين كلام كثير، اصطنعه أهل التاريخ، ليتخذ منه مادة للتندر والتفكه، وليصنع منه خصوم الإسلام صورا هزيلة للشخصيات الإسلامية فى المواقف الحرجة.

قالوا عن عمرو بن العاص: إن معاوية لما أحس ببوادر الهزيمة بعث إلى عمرو بن العاص، وقال له: "هات ما عندك من المكيدة فأشار عليه برفع المصاحف، ليخدع بقية المسلمين".

هذه واحدة ذكروها فى عمرو، صاحب السيرة الماضية.

والثانية التى يتندرون بها، هى أنهم زعموا: "أن الحكمين لما اجتمعا بأذرح[1]، من دومة الجندل[2] وتفاوضا، اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبى موسى: اسبق بالقول، فتقدم أبو موسى فقال: إنى نظرت فخلعت عليا عن الأمر، كما خلعت سيفى هذا من عنقى – وأخرج سيفه من عنقه فوضعه على الأرض.

وقام عمرو فوضع سيفه فى الأرض، وقال: أيها الناس، إنى نظرت فأثبت معاوية فى الأمر، كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى، وتقلد سيفه، فأنكر أبو موسى، فقال لعمرو: أنت كالكلب: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

فرد عليه عمرو قائلا: مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.. إلخ ما قيل فى هذا الموضوع.

أما ما تحدثوا به فى شأن أبى موسى، فإنهم قالوا: إنه أبله، ضعيف الرأى، مخدوع فى القول، ووصفوه بأنه كان على جانب كبير من الغفلة... الخ.

الأباطيل فى هذا الموضوع

نشأت الأباطيل من طبيعة تصوير الرجلين فى أمر خطير، بأن أحدهما خدع الآخر وكذب عليه، والثانى صدقه ووثق به.

ولم يراع أصحاب الهوى شخصية الرجلين ومركزهما فى الإسلام، وبعدهما – كل البعد – عن الكذب والخداع، وترفعهما عن المهاترة واستعمال الألفاظ البذيئة، التى يترفع عنها كثير من الناس فى عصرنا الحالى، على ما فيها من بعد شديد، عما كانوا فيه.

ونحن نحاول أن نفند هذه الافتراءات، بإثبات البعد الشاسع بينهما وبين الحقيقة، فنقول ما قاله الأستاذ محب الدين الخطيب، فى تعليقاته على كتاب العواصم من القواصم

(١) أذرح قرية تقع فى منطقة بين أراضى شرقى الأردن والمملكة السعودية فى الأطراف الجنوبية من بادية الشام.

(٢) دومة الجندل فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة.

حيث ذكر ما يأتى[1]:

"أن أصل المغالطة، ناشئ من تجاهل المغالطين، أن معاوية لم يكن – يومئذ – خليفة، ولا داعيا للخلافة، حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه أو تثبيتها له.

ويذكر ذلك فى وضوح، إمام الحرمين فى كتابه (لمع الأدلة) حيث يقول: "ومعاوية وإن قاتل عليا، فإنه لا ينكر إمامته، ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان رضى الله عنه ظانا أنه مصيب، لكنه كان مخطئا[2].

بل إن أبا موسى وعمرا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة، إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم.

واتفاق الحكمين على ذلك، لا يتناول معاوية، لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعى على الذين اشتركوا فى قتل عثمان، فلم يكن التحكيم إلا فى إمامة المسلمين، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم.

وهكذا لم يتناول التحكيم إلا شيئا واحدا، هو الإمامة.

أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين، فبقى كما كان: على، متصرف فى البلاد التى تحت حكمه، ومعاوية متصرف فى البلاد التى خضعت له.

التحكيم كان إجراء سليما

من هذا العرض، ندرك أن التحكيم لم يكن كما صوره المؤرخون، من قيامه على الخداع والمكر من جانب عمرو بن العاص، ولم يكن فيه شىء من البلاهة والغفلة من جانب أبى موسى الأشعرى.

حقيقة لو أن عمرا أعلن فى نتيجة التحكيم: أنه ولى معاوية الخلافة، لقلنا إن عمرا استطاع – بدهائه – أن ينتزع إمارة المؤمنين من على الذى بايعه جمهور المسلمين، وأعطاها معاوية الذى لم يبايعه أحد...

(١) راجع العواصم من القواصم ص ١٧٥ ، ١٧٦، وكتاب الطبرى جـ٦ ص ٣٩ وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ٢ ص ١٢٧ وهذا الكتاب يوضح إلى أى مدى انقسم المسلمون إلى فرق مختلفة (وإن كل فرقة لها رأى يصل إلى درجة تكفير الفرقة الأخرى) مما يدل على التأثر بالهوى فى تلك الفترة التى ظهرت فيها هذه الآراء.

(٢) راجع كتاب لمع الأدلة لإمام الحرمين عبد الملك الجوينى ص ١١٥.

وفى تلك الحالة، يكون عمرو بن العاص، قد خدع أبا موسى وطعنه فى الخلف ..

ولكن الذى حدث – بالفعل – أن عمرا لم يعلن شيئا من ذلك، كما أن معاوية لم يدع أنه أصبح – بعد التحكيم – أميرا للمؤمنين.

وظلت هذه الحقيقة فى أذهان الناس على مر العصور، ولم يصبح معاوية خليفة للمسلمين، إلا بعد أن بايعه الحسن بن على فى عام الجماعة، بعد موت على رضى الله عنه.

ولقد روى المسعودى[1] أن الحكمين كتبا وثيقة، اتفقا فيها على خلع على ومعاوية، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى، يختار أعيان الصحابة من يرونه أهلا لهذا الأمر.

ونحن نجد أن رواية الطبري، التى يذكر فيها أن أبا موسى خلع صاحبه، وأن عمرا أثبت صاحبه، يظهر فيها الوضع والتلفيق، للأمور الآتية:

أولا: أن الطبرى، اعتمد على أن الحكمين لم يكتبا وثيقة، وأنهما اكتفيا بالخطابة أمام الجماهير..

ولكن أمرا خطيرا كهذا، لا يمكن أن يكتفى فيه بمجرد الكلام الذى يبدل ويغير فى أفواه الرواة، من غير أن يكون له أصل يرجع إليه عند الاختلاف، لأن الذى يلزم الأمة، إنما هو الوثيقة المكتوبة، لا مجرد الكلام، وخاصة أنهما أخذا وثيقة تفويض من الجانبين بالكتابة، لا بمجرد التفويض الشفوى، ونص هذه الوثيقة فى كتاب البداية والنهاية[2].

ثانيا: إذا كان عمرو بن العاص، ثبت صاحبه، ففى أى شىء ثبته؟ فإن كان ثبته فى إدارة البلاد التى تحت يده، فإن الأمر ماض على معاوية وعلى معا، فكل منهما باق فى الحكم على ما تحت يده، وإن كان المراد أنه ثبته فى إمارة المؤمنين فإن معاوية لم يكن مبايعا بالخلافة ولا مدعيا لها، حتى يثبته عمرو، ويلزم به المسلمون[3].

ثالثا: كان موضوع النزاع هو ثأر عثمان، فلما طلب على البيعة من معاوية، اشترط الثأر لعثمان أو تسليم القتلة، ومعنى هذا، تسليم معاوية لعلى بالخلافة "لأنه طلب منه – بوصفه الخليفة – تسليم القتلة أو إقامة الحد عليهم باعتباره أمير المؤمنين".

رابعا: أن موقف أبى موسى فى التحكيم، لم يكن أقل من موقف عمرو بن العاص فى شىء، ولذلك عد المؤرخون المنصفون هذا الموقف من مفاخر أبى موسى، بعد موته بأجيال،

(١) مروج الذهب ج٢ ص ٢٧.

(٢) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٧٥.

(٣) راجع العواصم من القواصم ص ١٧٦ هامش ١.

وأصبح مصدر فخار لأحفاده من بعده، حتى قال ذو الرمة الشاعر يخاطب بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى بهذه الأبيات:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا[1] وبيت الدين منقطع الكسر
فشد إصار الدين أيام أذرح[2] ورد حروبا قد لقحن إلى عقر

لكن إذا كان بنا نقد على هذا التحكيم، فإننا نلاحظ، أنه لم يكن وراء الحكمين قوة تنفذ ما اتفقا عليه، لأن الذى حدث، أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل فى هذا النزاع[3] بالوسيلة التى تمكنهما من ذلك.

خامسا: هناك رواية عن عمرو بن العاص بنفسه، تدل على أن معاوية غضب منه غضبا شديدا بسبب هذا التحكيم.

وهذه الرواية يرويها الدارقطنى عن "حضين بن المنذر" أنه قال: لما عزل عمرو معاوية، جاء حضين بن المنذر، فضرب فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية، فعلم به معاوية، فأرسل إليه، وقال له: بلغنى عن هذا – يعنى عمرو بن العاص كذا وكذا – أى عزله عليا ومعاوية، فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه؟ فأتيته – يعنى عمرا – فقلت: أخبرنى عن الأمر الذى وليت أنت وأبو موسى، كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس ما قالوا، والله، ما كان الأمر على ما قالوا[4] ولكن قلت لأبى موسى: ما ترى فى هذا الأمر؟ قال: أرى أنه فى النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، قلت: فأين تجعلنى أنا ومعاوية؟ فقال: أن يستغن بكما ففيكما معونة، وأن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال: فكانت هى التى فتل[5] منها معاوية نفسه[6].

من كل ما ذكرنا، يتضح أن الذى نسجه خيال المؤرخين، أو دسه خصوم الإسلام فى التحكيم، إنما هو كذب انكشف عنه الستار، وأمر دبر فى الظلام، ففضحه نور النهار[7].

---

(١) تشاءوا معناها تنازعوا

(٢) أذرح هى البلدة التى أعلنت فيها نتيجة.

(٣) راجع الحقيقة المثالية فى الإسلام ١٩٩-٢٠٠ التحكيم.

(٤) أى إنهما لم يعزلا ولم يوليا ولكن تركا الأمر لأعيان الصحابة.

(٥) فى القاموس فتل ذؤابته أزاله عن رأيه.

(٦) العواصم من القواصم ص ١٧٨ – ١٧٩.

(٧) الدكتور إبراهيم على شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ من ص ١٥٢ – ١٨٢.

على والخوارج:

وأما الفريق الآخر ممن كانوا من جند على بصفين وانشقوا عليه بعد قبوله بالتحكيم وهم الخوارج، فقد أصبحوا الفريق الثالث الذى لا يعترف لا بعلى ولا بمعاوية، فلما جاءت نتيجة التحكيم طالبهم أمير المؤمنين بالعودة إلى صفوف جنده لكى يقاتلوا معاوية وأهل الشام جميعا، فكان جوابهم له وقحا إذ قالوا له: إنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، فقدنا بذلك على سواء إن الله لا يحب الخائنين، فرد عليهم قائلا: أبعد إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتى معه وجهادى فى سبيل الله، أشهد على نفسى بالكفر، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ثم تركهم وانصرف عنهم.

فلما استقر على وأصحابه للزحف إلى الشام مرة أخرى لقتال معاوية وجنده إذ بهؤلاء الخوارج قد خرجوا على كل من عداهم وحادوا عن الإسلام ، فعاثوا فى الأرض فسادا واستحلوا ما حرم الله فقتلوا وسفكوا دماء بعض المسلمين ومثلوا بهم، فكان لابد من الخلاص منهم قبل التوجه إلى الشام، فأوفد إليهم رسولا ينهاهم عن هذا الفساد فقتلوه، فتوجه إليهم بنفسه على رأس أربعة آلاف من رجاله وطالبهم أولا بتسليم قتلة عبد الله ابن حباب – صاحب النبى – وامرأته حتى يقتص منهم، فجابهوه بأنهم جميعا قتلته، وبأنهم يستحلون دماءكم أيضا، ثم جرت محاورة بين على وهؤلاء الخوارج كان من نتيجتها أن عاد إلى رشده ثمانية آلاف رجل منهم وبقى على انشقاقه أربعة آلاف رجل دخلوا فى معركة خاسرة ضد أمير المؤمنين الذى تمكن مع رجاله من القضاء على تلك الفئة الباغية ولم يبقى منهم سوى بضعة أفراد، كما أن القتلى من جند على لم يزد على سبعة أو ثمانية رجال، وتعرف هذه الموقعة التى كانت فى العام السابع والثلاثين بموقعة النهروان إلى الجنوب الشرقى من بغداد، على أن هؤلاء الرجال الذين نجوا من القتل يوم النهروان من الخوارج قدر لهم أن يتفرقوا فى جهات شتى ليجدو فيها بعض من يستمع إليهم فكانوا نواة لعديد من فرق الخوارج التى انتشرت هنا وهناك وظلت موجودة ومؤثرة ردحا من الزمن، وليس هذا مجال الحديث عن تاريخ الخوارج وحروبهم وفرقهم وآرائهم المختلفة.

المرحلة الأخيرة من خلافة على:

إذا كانت خلافة على بن أبى طالب قد أحاطت بها المصاعب وحاصرتها المتابع وأضعفتها الحروب، فإن الفترة التى أعقبت النهروان لا ريب كانت أعقد فترات هذه

الخلافة وأشقها على الإطلاق، وكانت كل الشواهد قاطعة الدلالة على أن أمرها إلى انتهاء، فى الوقت الذى كان خصمه معاوية يجنى ثمرات اجتماع الشاميين عليه والتفافهم حوله، ومن جهة أخرى تقر عينه بتطور الخلاف بين على وأصحابه مما أتاح له أن يعمل على اقتطاع أجزاء كبيرة من أقاليم الدولة التى كانت تابعة لعلى كمصر والحجاز واليمن مما يستتبع بالضرورة إضعاف قوة أمير المؤمنين وازدياد قوة معاوية اتساع رقعة سيطرته الفعلية.

ذلك أنه عقب انتهاء على من أمر الخوارج فى النهروان كان عليه أن يتوجه نحو الشام لحرب معاوية لكن ذلك لم يتم، لماذا؟ لقد خذله رجاله وتقاعسوا عن الخروج معه وتسللوا منسحبين من معسكره فى الكوفة فلم يبق معه إلا المخلصون الصادقون، فكانت إصابة على فى رجاله على هذا النحو أشد وأنكى.

قال الطبرى: كان على لما فرغ من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله قد أحسن بكم، وأعز نصركم فتوجهوا من فوزكم هذا إلى عدوكم، قالوا: يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا وكلت سيوفنا، ونسلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصدا (يعنى قطعا منكسرة)، فارجع إلى مصرنا (الكوفة) فلنستعد بأحسن عددنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا، فأقبل حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا فيه أياما، ثم تسللوا من معسكرهم، فدخلوا إلا رجالا من وجود الناس قليلا وترك المعسكر خاليا فلما رأى ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه فى المسير.

ويروى ابن سعد عن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب قوله: كان أبى يريد أن يغزو معاوية وأهل الشام فجعل يعقد لوائه، ثم يحلف لا يحله حتى يسير، فيأبى عليه الناس وينتشر رأيهم، ويجبنون فيحله، ويكفر عن يمينه، فعل ذلك أربع مرات.

ونشط معاوية فى شن الغارات على الولايات التى تخضع لسلطان على، حتى اقتصرت سيطرته على العراق وفارس دون غيرهما، ولا يأبه رجال على لما يصيب سلطان خليفتهم من ضعف وانتقاص فلا يتحركون ولا ينهضون للدفاع عنه وحمايته.

وهكذا أوقع به أصحابه وقعدوا به عن مواجهة خصمه معاوية الذى كان رجاله أطوع له من أبنائه، فكان على يتمنى لو يقايض عشرة من جنده بواحد فقط من جند معاوية وبعقد

مقارنة بينه برجاله، وبين معاوية برجاله فيقول – بعد استيلاء عمرو بن العاص على مصر وقتل محمد بن أبى بكر:

"أو ليس عجيبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغاة فيتبعونه بغير عطاء، ويجيبونه فى السنة المرتين والثلاث إلى أى وجه شاء، وأنا أدعوكم وأنتم أولى النهى وبقية الناس على معاوية، وطائفة منكم على العطاء فتتفرقون عنى وتعصوننى وتختلفون على".

وإذن أصبح موقف على حرجا بتقلص سلطانه، وتخاذل رجاله فلقد تحرج موقف معاوية كذلك، إذ انتهز الروم فرصة هذا النزاع الداخلى بين المسلمين، وحاولوا الانقضاض على الحدود الإسلامية المتاخمة لهم شمال الشام وغيرها، فكان معاوية يهادنهم ويبذل لهم إتاوة تكفيه شرهم إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، ولقى معاوية فى هذا الصدد عنتا عظيما، حتى كانت سنة أربعين للهجرة، وفيها راسل معاوية عليا فى شأن إنهاء حالة الحرب بينهما على أن يكون لعلى العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى سلطانه بجيش ولا غارة ولا غزوة، فقبل على ذلك، وتراضيا عليه، وأقام كلا منهما على ما بيده من أقطار الدولة.

خاتمة على كرم الله وجهه:

وفى العام الذى تمت فيه المهادنة اجتمع نفر من الخوارج لدراسة الموقف، وتذاكروا ما أصاب إخوانهم فى النهروان وأزعجهم تفرق الناس بين على ومعاوية، وقالوا: ما نصنع بالبقاء؟ لو قتلنا أئمة الضلالة لأرحنا العباد، وثأرنا منهم بجوار الكعبة على أن يتقربوا إلى الله بقتل من كان فى زعمهم السبب فى هذا الصراع الدموى الذى توقفت بسببه مسيرة الفتوح التى بدأها أبو بكر وأذكى أوارها عمر رضى الله عنهما.

واتفقت كلمة هؤلاء الثلاثة (عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر) على قتل على، ومعاوية وعمرو بن العاص، فى يوم معين هو يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة، وقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم عليا بن أبى طالب، وقال البرك بن عبد الله أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

ونجح ابن ملجم فى قتل أمير المؤمنين على، فقد وجه إليه ضربة بالسيف وهو خارج لصلاة الفجر وهو يقول: "لا حكم إلا لله، لا لك ولا لأصحابك يا على" وتوفى على كرم الله وجهه يوم الأحد السابع عشر من رمضان من السنة نفسها.

أما معاوية فقد وجه البرك بن عبد الله ضربة أصابته بجراح برئ منها، أما عمرو بن العاص فقد منعه المرض من الخروج للصلاة، فأصاب عمرو بن بكر خارجة بن حذافة الذى كان يشبه عمرو بن العاص فقال: "أردت عمرو وأراد الله خارجة".

وقد ذهب هذا القول مثلا، وهكذا ذهب كرم الله وجهه إلى ربه شهيدا، وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر إلا أياما قلائل، وكانت سنه يوم استشهاده ثلاثا وستين سنة.

ولقد بايع الناس الحسن بن على بالخلافة عقب استشهاد أبيه ولما كان يدرك من أن أهل العراق كانوا السبب فيما أصاب أباه فى نزاعه مع معاوية، ولما كان يعتقد من أنهم لا يوثق لهم بعهد، ولأنه بفطرته يميل إلى المسالمة، ويتجه إلى جمع كلمة المسلمين فقد تبادل الخطاب والرسل مع معاوية بشأن تنازله عن الخلافة لمعاوية بشروط حددت فى اجتماعهما بالكوفة فى ربيع الأول من العام الحادى والأربعين الهجرى، هذا العام الذى سمى بعام الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيه بعد زمن من التمزق والفرقة.

ولو أن عليا كرم الله وجهه لم يشغل بالحروب الداخلية وتفرغ للفتح كأسلافه من الخلفاء الراشدين لكان من المحتمل أن تمتد الفتوح الإسلامية إلى المحيط الهادى شرقا، وإلى المحيط الأطلنطى (الأطلسى) غربا.

ولو أن معاوية – وهو أمير الشام – لم يشغل بحرب على لكان من المحتمل أن يقضى على الإمبراطورية البيزنطية التى طال النزاع بينها وبين المسلمين.

وهنا ننبه إلى أن النزاع الذى نشب بين الصحابة كان مبعثه أعداء الإسلام بعد أن وجدوا أنفسهم لم ينالوا من الإسلام برغم نجاحهم فى قتل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، ثم من بعده عثمان بن عفان، فوجهوا حربتهم إلى الصف الإسلامى حيث استطاعوا بعد قتل عثمان ابن عفان أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين أيام الفتنة الكبرى لتناقض المصالح بين المعسكرين، أو لصراع على السلطة، لأنه كان على رأس كل من المعسكرين عدد من العشرة المبشرين بالجنة، والذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وإنما كان الاجتهاد المجرد وواجب المسلم الحق أن يمسك على توجيه اللوم أو التثريب لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسبنا ما زلنا نعانيه.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[سورة البقرة: آية ٢١٧]

منزلة الصحابة فى الكتاب والسنة

فى القرآن الكريم:

هذا كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد وصف صحابة رسول الله بما يرفع من شأنهم، وينزههم عن الانحدار إلى مزالق الأهواء الشخصية، والأغراض الذاتية، فيما يلونه من الأمور، وما ينشدونه من إصلاح.

ففى القرآن نصوص واضحة، تدل على تفضيل الله تعالى إياهم وإخباره عن طهارتهم واختياره إياهم، ووعده لهم بالاستخلاف فى الأرض والتمكين فى الدين، كما وعدهم – جميعا – بالجنة، وذلك فى سبع عشرة آية، نذكر منها ما يأتى:

أولا: فى خطاب الله تعالى لأمة محمد جميعا بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1][سورةآل عمران: آية ١١٠] فإذا كان الخطاب – لجميع الأمة، فأول من تصدق عليهم هذه الأوصاف، هم الصحابة رضوان الله عليهم.

ثانيا: أخبر المولى سبحانه وتعالى، أن الصحابة متفاوتون فى الفضل، ومع ذلك هم جميعا فى الجنة بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾. [سورة الحديد: آية ١٠]

ثالثا: أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين جميعا، وسماهم بالصادقين، كما أثنى على الأنصار جميعا وسماهم بالمفلحين، فى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر: الآيتان ٨، ٩]

(١) تحذير العبقرى جـ١ ص ١٨٠،

رابعا: أثنى الله سبحانه على أهل السبق إلى الإسلام، وأعلن رضاه عنهم ورضاهم عنه، فى إعداده لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، فى قوله جل جلاله فى سورة التوبة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾. [سورة التوبة: آية ١٠٠]

خامسا: وصف القرآن جميع الصحابة، بأنهم بلغوا من السمو الخلقى، الدرجة التى تحدثت عنها جميع الكتب السماوية، وأن الله سبحانه وتعالى كملهم فى أخلاقهم ليغيظ بهم الكفار – فى قوله تعالى فى سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾[1]. [سورة الفتح آية ٢٩]

سادسا: فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾. [سورة الواقعة: آية ١٠]

سابعا: فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [سورة الأنفال آية ٦٤]

هذا قليل من كثير، من حديث القرآن فى شأن الصحابة جميعا، رضى الله عنهم، وشهادة من الله سبحانه وتعالى لهم، قبل أن يتناولهم الكتاب والمؤرخون – وخاصة المغرضون منهم – "الفتنة الكبرى" حديثا قد يحط من شأنهم ويجعلهم جميعا، عرضة للنقد والتجريح!!

وإذا تحدث القرآن بهذا الوضوح، فلا مجال بعد ذلك، لحديث يخالف قول الله فيهم .. وإذا وقع – من أحدهم أو من جماعة منهم – ما يبدو فى نظر الناس، أنه مخالف لعرفهم أو خارج عن مفهومهم، فلا بد أن يكون ذلك فى حدود الصفات التى وصفهم بها مولاهم سبحانه وتعالى.

فى السنة:

وهذه أحاديث رسول الله فى شأنهم، وهو الذى رباهم على عينه، وباشر أعمالهم

(١) تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى جـ١ ص ١٨١.

بنفسه، واطمأن على أخلاقهم من بعده، فلم يكن ليغيب عنه أمرهم، وهو الخبير بحاضرهم والذى أطلعه الله على مستقبلهم.

ولهذا ورد ذكرهم فى أحاديث رسول الله، بمناسبات عديدة، على هذه الصورة:

أولا: أخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه، من حديث عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "الله الله فى أصحابى.. لا تتخذوهم غرضا، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى، فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه".

ثانيا: أخرج الشيخان، وأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شىء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا أصحابى، فو الذى نفسى بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد[1] أحدهم ولا نصيفه".

هذا القول صدر فى مواجهة خالد بن الوليد، وهو من كبار صحابة رسول الله أيضا، غير أنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام – مع ذلك فنحن فى مقام الموازنة – نرى أن خالدا لو أنفق مثل أحد ذهبا، لا يساوى فى إنفاقه، مد عبد الرحمن بن عوف وأمثاله السابقين إلى الإسلام!!

هذا مقام الصحابة بعضهم من بعض، من أسلم منهم قبل الفتح – فتح مكة – ومن أسلم بعده.

فما مقام الصحابة إذن، من غيرهم، ممن يلونهم مكانة بعد ذلك، خاصة إذا كان أولئك الأغيار، ينالونهم بسوء؟

أترك المقارنة لفطنة القارئ، وإيمان المؤمنين بحديث رسول الله، فليس بعد كلام الله وحديث رسوله مجال للمخالفة أو للتأويل.

ثالثا: أخرج الترمذى عن ابن عمرو رضى الله عنهما عن النبى، أنه قال: "إذا رأيتم الذين يسبون أصحابى فقولوا: لعنة الله على شركم".

رابعا: أخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: "من

---

(١) المد بضم الميم ملء كف الإنسان إذا ملأهما ومد يده بهما أ. هـ، قاموس والنصيف هو نصف المد.

سب أصحابى فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين".

خامسا: روى البزار فى مسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اختار أصحابى على الثقلين، سوى النبيين والمرسلين".

سادسا: روى الترمذى عن بريدة رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ: "قال: "ما أحد من أصحابى يموت بأرض، إلا بعث قائدا ونورا لهم يوم القيامة".

سابعا: تواتر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

كما روى الدارمى والبيهقى الحديث: "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم، اهتديتم".

وفى حديث سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سألت ربى فيما اختلف فيه أصحابى من بعدى، فأوحى الله إلى: يا محمد، إن أصحابك عندى، بمنزلة النجوم فى السماء، بعضها أضوأ من بعض، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم، فهو عندى على هدى".

وكذلك حديث الإمام الشافعى، بسنده إلى أنس بن مالك. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اختار أصحابى، فجعلهم أنصاري، وإنه سيجئ – فى آخر الزمان – قوم ينتقصونهم، ألا فلا تناكحوهم، ألا فلا تنكحوا إليهم، ألا فلا تصلوا عليهم عليهم حلت اللعنة"[1].

ويروى ابن كثير، أن رسول الله ﷺ حين قدم من حجة الوداع، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس، إن أبا بكر لم يسئنى قط، فاعرفوا ذلك له أيها الناس، إنى عن أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض.. فاعرفوا ذلك لهم".

"أيها الناس، ارفعوا السنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحد منهم، فقولوا فيه خيرا"[2].

تلك طائفة من أحاديث رسول الله، أطلنا فى سردها، وسقناها، لبيان مكانة الصحابة رضوان الله عليهم، عند الله وعند رسول الله بصفة عامة – وإن كانوا يتفاوتون فى المنزلة،

---

(١) من أراد أن يستزيد فليراجع كتاب تحذير العبقرى للشيخ محمد العربى التبانى جـ١ ص ١٨٠ – ١٨٤، وكتاب العواصم من القواصم ص ٣٢ – ٣٤.

(٢) البداية والنهاية جـ٥ ص ٣١٤.

إلا أن تقديرهم العام هو هذا، ليعلم الذى لم يكن يعلم: أن الذين خاضوا فى تجريحهم، وأطلقوا لألسنتهم وأقلامهم العنان، ليحكموا عليهم بمعايير زمنهم، ويقيسوهم – نسبيا – بالزعماء السياسيين المعاصرين لهم – ليعلم هؤلاء أنهم: جاروا فى أحكامهم، وانحرفوا عن جادة الصواب.

* * *